



كيان للنشر والتوزيع

من هنا تمر الأحلام

قصص

تأليف :

إيناس التركي

تحرير أدبي:

جلال الدين عز الدين

لوحات داخلية:

غادة خليفة

رقم الإيداع: 2016/11993

الترقيم الدولي: 9-93-6376-977-978

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

كيان للنشر والتوزيع

22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: -0235688678 0235611772

هاتف محمول: 01005248794-01000405450-01001872290

بريد إلكتروني: - kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة
كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من
الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

من هنا تمر الأحلام

إيناس التركي

قصص

الإهداء

إلى كل جناحين ارتفعا ليتراقصا في خفقانهما،

حرفين متعانقين

ل..ا

لا

علامة نصر في وجه الجاذبية!

«كل شيء يمكنك أن تتخيله حقيقي».

بابلو بيكاسو

«أولئك الذين لا يؤمنون بالسحر لن يجدوه
أبدًا».

روالد دال

الأشكال الظاهرة في المرأة حقيقتها أقرب مما تراها

المرأة المعلقة فوق الباب الموارب تعلن عن العرافة بالداخل. فيما مضى، كان الباب مغلقاً أمام الطوابير الطويلة الواقفة أمامه تنتظر. ينفتح لحظة، حتى يلج مَنْ أتى دوره، قبل أن يُغلق بإحكام مرة أخرى. الآن، لم تعد هناك طوابير، ولم تعد هناك أعداد لا حصر لها تتقاتل حتى تتقدم للدخول. المكان هادئ، باستثناء صفير الريح، وصرير الباب الذي يتحرك من وقت إلى آخر. المرأة المعلقة من طرف واحد، وقد تدلّى الطرف المقابل له، انكسرت حافّتها، وغطّاه ترابٌ تراكم سُمكُه عبر سنوات قضتها في دهاليز المنفى الذي آلت إليه. لكن، على الرغم من ذلك، ما زالت واضحة كلافطة تعريف بتلك القابعة بالداخل.

عرافةً فريدةً من نوعها كانت. لا تمتلك كُرة بلورية تقرأ فيها المستقبل، ولا تُمسك بكفٍّ مَنْ يزورها تتأمل راحته لتقرأ له الطالع. فعوضاً عن الكرة البلورية، كان وجهها مرآة صافية، ينظر فيها زائرها ليشاهد دواخله. وبدلاً من قراءة الكف، كان من يزورها يتناول يدها هي، ليعزف عليها لحنه الخاص. لها أصابع طويلة رشيقة مستدقّة الأطراف. يمكن لمن يتناولها أن يعزف عليها كأصابع بيانو، أو يرفعها إلى شفثيه كآلة نفخ خشبية أو نحاسية. كان من الممكن أيضاً، لو باعد زائرها بين أصابعها بعض الشيء، أن يعزف عليها كآلة وترية. يعزف، فتتعالى نغمات اللحن الذي تعزفه روحه، ولا يمكنه سماعه إلا من خلال أصابعها هي. لكن، بعد ما حدث، وبعد نفيها بعيداً، لم يعد يحاول زيارتها سوى من كان فائق الشجاعة، أو بالغ اليأس والاضطرار.

أيامَ كانت تحتل موقعها وسط الملعب المسمّى مدينة، كان الهرج السائد في الخارج لا يشي بالسكون الكامن خلف بابها. وجه المرأة هادئ كبحيرة تنتظر حجارة أرواحهم يقذفونها في أعماقها، لاستجلاء أعماقهم فيما يرتسم على سطحها. أصابعها مفرودة أمامها في انتظار أن يستنطقها أحدهم. الكل في الخارج خلعوا رؤوسهم من فوق أكتافهم، وازدحمت الطرقات بالرؤوس المتدحرجة ككرات قدم، يركلها أصحابها في محاولة لتسديد هدف في مرمى الآخرين. يركل أحدهم رأسه عاليًا، على أمل أن تصيب تسديدته، فيستقر رأسه فوق كتفي الخصم الذي يقابله. يتقافز مهلاً لنجاحه في فرض دماغه على غيره، وتثبيته فوق كتفيه، غير عابئ بأن صار بلا رأس. يواصل الركض، قبل أن يغافله أحدهم بتسديدة تثبت رأسًا آخر على عنقه. فقط، أولئك الذين وقفوا في الطابور أمام بابها احتفظوا برؤوسهم، حتى يواجهوا مرآتها عندما يأتي دورهم في الدخول. لكن، على الرغم من ذلك، كان يمكن أن يشاهد أحدهم، من حين إلى آخر، وهو يغادر موقعه في الصف، ليشارك في المباريات الدائرة، ثم يعود، فتنشب مناوشات ومعارك صغيرة على الدّور، قد تبلغ حدتها أن يركل أحدهم رأس الآخر من فوق كتفيه، فيتدحرج بعيدًا.

وراء الباب، كان رأسها هي، بمرآتها الصافية في الوجه، مبطنًا من الداخل بطبقة سميكة من الرصاص، تكسو ظهر المرأة، لتمنع أيًا من المرئيات المنعكسة على سطحها من التسلل إلى دواخل روحها. قلبها، هو الآخر، كان خزانة من الرصاص، كخط دفاع إضافيٍّ، لها قفل محكم، لا يعرف أرقامه السرية أحد، ولا يدري أي شخص ما يختبئ بداخله. على كثرة مَنْ عَبَّرُوا بابها، لم يسمع أحد صوتها أبدًا، سوى بعبارة واحدة توجهها إلى جميع من يدلّف إلى مرآتها: «الأشكال الظاهرة في المرأة حقيقتها أقرب مما تراها». لم

يفهم أحد من قَبْلُ مغزى الكلمات بالتحديد، غير أن الحكماء منهم فسَّروها بأن كل مَنْ يعبر عتبات ذلك الباب، حتى وهو يرغب في رؤية الحقيقة في المرأة، لا يقوى على مجابتهها كاملة. لذا، فإن ما يراه هو صورة مصغرة، وبعيدة بعض الشيء عما هو في الواقع.

العجز عن فهم كلماتها لم يقف حائلًا، أبدًا، بين بابها وبين أولئك الواقفين أمامه يقتتلون في الصف للدخول. يدخل أحدهم يحمل فوق كتفيه رأسًا اتخذ شكل صندوق عتيق، عليه أقفال سميكة محكمة، يشي بأن محتواه من أثمان الكنوز وأندرها. يواجه مرآتها، فيرى صندوق الكنز تابوتًا، تزحف الديدان من فجوات خشبه المتعفن. أصابعه تستنطق الأصابع الطويلة الممتدة أمامه، فتُصدر أصوات صفيح صدئ يقرع بعضه بعضًا، مع صوت دقات طبول خاوية. تدخل أخرى تحمل رأسًا مستديرًا من الخبز المضفور بعناية، وقد نبتت من بين ثنياته التي تتناثر فوقها حبات السمسم الذهبية زهورًا بيضاء صغيرة. تجلس في مواجهة المرأة، فتتكشف ملامحها تفاحةً سوداء، تلتف حولها أشواك، وأفعى تتلوى بينما يسيل السم من أنيابها. الأنامل الرشيقة التي رفعتها إلى شفثيها تُصدر فحيحًا هامسًا، يتعالى ليعوي كعاصفة. ومن بين كل مَنْ خرجوا من الباب، لم ينبس أحد بحرف لأولئك المنتظرين في الخارج يشي بما شاهدوه في الداخل، فيساعدتهم في تفسير الكلمات.

ذات صباح، استيقظت المدينة التي طالما انشغلت بمباريات الرؤوس، لتجد فكرة واحدة استقرت داخل تجاويف تلك الرؤوس، كلها من دون استثناء، سواءً تلك التي تتدحرج في الطرقات، أم تلك المعلقة في الهواء تتصيّد

مرمى تهبط فيه لتلتصق بعنق ما، أو حتى تلك المستقرة فوق أكتافها، أو فوق أكتاف غيرها عنوة. توقّف الكل فجأة، وعمّ المدينة السكون والصمت. توقفت الرؤوس المتدحرجة، فثبت بعضها ووجهه في التراب، بينما تلك الرؤوس الطائرة في الهواء جمّدت مكانها، فبقيت معلقة في الجو. لم يعد هناك مغزى من تبادل الرؤوس ومحاولات أحدهم فرض رأسه على غيره، وقد غدت كل الرؤوس سواءً، تحوي الفكرة نفسها. كانت الفكرة قد تسللت من خلف باب العرافة، وانتشرت مع مَنْ خرجوا من ذلك الباب بعد مواجهة المرأة. صاح بها الجمع صيحةً واحدة هادرة، وقد حاصروا بابها: «أرينا الحق جهرة!» كل مَنْ كان قد واجه المرأة في الداخل، كذّب ما شاهده، ورفض الاعتراف بما رآه بعد أن خرج. لكن الفكرة بقيت تنخر في تجاويف الرؤوس. الحق، ولا شيء سواه. يريدون رؤية الحق الذي من أجله وقفوا مصطفيين، متحمّلين أوار الشمس وقرس البرد. انتشرت الفكرة من رأس إلى آخر مع عمليات التبادل المستمرة، حتى وصلت إلى تلك الرؤوس التي لم تقف يومًا في طابور العرافة، «أرينا الحق جهرة»، هادرة مزلزلة. أتاها صوتها الهادئ الرخيم بالكلمات نفسها التي لم يسمعوا غيرها منها يومًا: «الأشكال الظاهرة في المرأة حقيقتها أقرب مما تراها». مرةً أخرى، بهدير ارتجّ له بابها ارتجاجًا، صرخوا: «أرينا الحق جهرة»!

لحظات تجمّد فيها الكون، وتوقّف الزمن، انفتح بعدها الباب بهدوء. واجهتهم المرأة، وسطحها يلتمع تحت الشمس. انعكست أمام أعينهم آلاف الصور المتداخلة المشوّهة، تُنافس أكثر كوابيسهم ظلامًا ورعبًا. مرةً أخرى، كرّرت كلماتها بوضوح على مسامعهم: «الأشكال الظاهرة في المرأة حقيقتها أقرب مما تراها». لأول مرة، تتسرب الكلمات إلى دواخلهم، وقد أشرق المعنى

المقصود في أذهانهم. حقيقتهم التي رأوها في مرآتها صارت أقرب إليهم من حبل الوريد. كل من رفض الاعتراف بما واجهه سابقًا في المرآة، صار ما رآه من قَبْلُ هو حقيقته الظاهرة. وكل من صاح طالبًا رؤية الحق، صار ما رآه منعكسًا في المرآة في تلك اللحظة هو ذاته ما يستقر فوق كتفيه وداخل روحه وقلبه. تطابقت الأشكال والصور المنعكسة في المرآة بعد أن تساقطت الأقنعة، وباتت حقيقتهم لصيقة بهم، لا يرجون منها فكاكًا. فهموا تحذير العرافة متأخرًا، بعد أن حلت عليهم اللعنة واستقرت.

اختفت لغة الكلام، وتعالى الصرخات والعياء والأصوات المنكرة. منهم مَنْ قذف وجه المرآة بحجر، ومنهم من سدّ للسطح اللامع ضربة بحوافره التي نبتت. تشرّخت المرآة، وانقسم وجهها عشرات الأجزاء الصغيرة غير المنتظمة. في كل جزء، انعكست الصور نفسها متكررة، لتضاعف أمام أعينهم الكوابيس، ويتضاعف الفزع. طاردوها، وطردها بعيدًا عن المدينة الملعونة. صار على مَنْ يرغب في مواجهة المرآة أن يهبط في بطن وادٍ حالك الظلمة، تتصارع فيه أشباح وخيالات لها صراخ مفزع يَصُمُّ الأذان. ولو نجح أحدهم في الخروج من أعماق الوادي حيًّا، فعليه صعود جبل لا تصل إلى قمته عين. أعلى القمة، تستقر الشمس مبهرة حارقة. من يجترأ أعلى الجبل ويعبر من بين أشعة الشمس، فما عليه سوى أن يتمدّد فوق سطح نهر يحمله حتى السفح، حيث يجد طريقًا ترابيًّا، يمشي فيه حتى يصل إلى كوخ العزّافة في منتهاه.

بعيدًا، في طرقات المدينة، كانت تسير صغيرة، تجمع البقايا، وتلتقط ما يروق لها من الرؤوس الملقاة على حافة الطريق بلا صاحب. من كل الملامح، تختار

تفاصيل تنفض عنها التراب، وتمسحها بيديها جيدًا، قبل أن تضعها في الكيس المرفّع الذي تربطه حول وسطها. وفي آخر كل نهار، تنزوي في ركنها عند أرض خربة، وتجلس وساقاها ممدودتان أمامها، تفرغ محتويات الكيس بجوارها، وتقلّبها بيديها، باحثَةً عما تريد. تختار قطعة، تتأملها من قرب، قبل أن تخلع من وجهها جزءًا تُلقيه جانبًا، لتضع بدلًا منه القطعة الجديدة. تتمدّد بعدها لتنام على جانبها، واضعة كَفِّها بين وجنتها وتراب الأرض. من مخلفات المدينة الملعونة صنعت ملامحها. وجهها يشبه لوحة موزاييك من بقايا أُعيد تدويرها. انتوت أن تقطع الرحلة في الصباح، عبر بطن الوادي وقمة الجبل مرورًا بالنهر، حتى تصل إلى الباب الذي تعلقت فوقه المرأة.

خطواتها التي بدأت بها رحلتها عبر طرقات المدينة، صاحبَتها اللعنات، وأمطرها السباب البذيء وفاحش الكلام. كل مَنْ رآها ودَّعها ببصقة، كانت تمسحها بكفِّها في هدوء، وهي تواصل خطواتها، وعيناها مثبتتان على الأفق. شَيَّعوها بأمنياتهم بهلاكها، هي وتلك التي تخاطر للوصول إلى بابها. كانت اللعنات تُصَب فوق رأس كل من تُسَوِّل له نفسه مجرد التفكير في الاتصال بالعرّافة، سبب بَلواهم ولعناتهم. لكن الانتقام كان مضاعفًا هذه المرة، لأنهم كانوا الأقوى حيال طفلة تفترش الطرقات وتنام في أرض خربة. لم يعد ينقصهم سوى من شَكَّلت ملامحها من مخلفات ملامحهم، ولا يعرفون لها أمًّا ولا أبًا! اختفى طيفها في الأفق، وأصداء لعناتهم لا تزال تتردد في الفضاء.

شارفت خطواتها حافة الوادي الذي طالما سمعت عن ظلامه الحالك ورعب كوابيسه. تردّدت برهة وهي تظن نفسها ضلت الطريق. لم يكن الظلام الدامس هو ما يواجهها، بل ألوان شفق خافتة. طرقت مِسْمَعِيها أصوات

طيور تشبه تلك التي تسبق شروق الشمس. أخذت نفسًا عميقًا، حبسته داخل صدرها كمن يستعد للغوص في أعماق محيط، وواصلت الخطو قُدُمًا. تسير مُغمضة العينين، وتستشعر تحت قدميها الحافيتين نعومة حشائش غضة. تتخلل شعرها نسمات، بينما تداعب وجنتيها، من حين إلى آخر، لمسات رقيقة، حرّرت أن مصدرها أجنحة طيور صغيرة وفراشات تطير بالقرب منها. فتحت عينيها عندما أحسّت بأن ملمس الأرض تحت قدميها تغير. بدلًا من الحشائش، شعرت بحصى صغير ينزلق تحت وقع خطواتها. وجدت نفسها بسفح جبل شاهق، لا تصل عيناها إلى قمّته. نفس عميق آخر، بدأت بعده التسلق، مستعينة بصخور ناتئة، تتشبث بها بكلتا يديها، بينما تبحث لقدمها عن حجر آمن تنقل إليه خطواتها القادمة. تتقدم ببطء وبثبات. تتمم بتعويذة صامتة، وهي حريصة على ألا تنظر إلى أسفل. «أريني الحق جهرة». تُكزّرها بصوت هامس مرّة تلو أخرى. تفتح عينيها، والكلمات مازالت تتردد فوق شفّتيها، بعد أن تشعر بدفء يحتضنها. تجد نفسها قبالة بوابة من أشعة شمس ذهبية، ينتهي كل شعاع منها بكفّ صغيرة. تُرَبّت عليها الكفوف الحانية، وتقودها إلى النهر الجاري خلفها. نفس عميق آخر، تمددت بعده فوق صفحة الماء، وأغمضت عينيها بعد ما بدا لها وقتًا طويلًا استغرقت رحلتها التي جمد الزمن خلالها، كأنه نهار واحد ممتد بلا ليل. ترقرت صفحة الموج، وهي تحملها في طريقها، بتهويذة نامت بعدها بعمق.

لا تدري كم من الوقت استغرقت في النوم. استيقظت لتجد السماء ملوّنة بألوان الغسق. اعتدلت قائمة، لتجد أمام عينيها طريقًا ترابيًا ممتدًا. قادتها خطواتها إلى نهايته، حتى صارت في مواجهة مرآة متربة، معلّقة من جانب واحد، وقد مال جانبها الآخر. مدّت كفّها تمسح الوجه المترب. على الفور،

انفتح الباب على مصراعيه لَمَّا انعكست ملامحها في المرآة ذات الحافة
المكسورة. حَطَّتْ إلى عتمة الداخل، وهي تتمم بتعويذتها: «أريني الحق
جهرة». سمعت الكلمات التي طالما رَدَّدها الجميع في المدينة الملعونة، على
أساس أنها سبب البلاء والشقاء للذين حَلَّ بهم: «الأشكال الظاهرة في المرآة
حقيقتها أقرب مما تراها». جلستُ متربعة أمام الكفَّين الممدودتين. رفعتُ
وجهها لتواجه سطح المرآة الذي تشظَّى وتكسَّر ليضاهي الموزاييك الذي
تتكوَّن منه ملامحها هي. نور ساطع توَهَّج بَغْتَةً أضاء الأرض. انكسر
الرصاص المبطن لمرآة العرَّافة، وتصدَّع رصاص خزانة قلبها. تصاعدت من
الأصابع الرشيقة نغمات عذبة. بدأت بنغمة كمان منفردة حزينة، تتصاعد إلى
قمة الشجن. تتابعت النغمات، موجة تلو الأخرى، تتداخل ليكمل بعضها بعضًا.
تتعالى وتنخفض في تتابع، كموج يسحب الروح في الجزر نحو أعماق ألم
غائر، ثم لا يلبث أن يعيدها إلى شط الأمان مع المد المشبَّع بلمحات من أمل.
اغرورقت عينا الصغيرة بالدموع. أحست بنمو زهور صغيرة ملوَّنة من بين
شقوق الملامح المجمَّعة، ترويهها دموعها المنهمرة. خفتت النغمات، وأصابع
العرافة تحتضن كَفَّيها الصغيرتين، بينما المطر يهطل بغزارة في الخارج
يغسل العالم.

حكاية ما قبل اليقظة

كما هي عاداتها كل يوم، ماتت في تمام العاشرة مساءً. عيناه المتسعّتان ترقبًا وقلقًا لم تصمدا أمام ثقل الغازي الذي ينهزم أمامه كل ليلة، فتسقط دفاعاته بسقوط جفنيه، لئسدل الستار على الحكاية قبل أن يتمكن من إنقاذها. يطلب من أمه أن تقرأ له القصة نفسها كل ليلة قبل النوم، وكل ليلة تسقط كلماتها على أذنه بصوتها الدافئ وهي تقرأ، بينما إحساس بالبرودة ينتابه، يقشعر له، ويقبض بأصابعه على طرف الغطاء الأزرق الذي يتماشى لونه مع جدران غرفته، وهو يترقب اللحظة ذاتها التي تتكرر كل مساء. تحكي أمه حكاية الأميرة وحكاية قلبها.

«كانت القلوب كلها مثل قطع البازل، وكل قلب يبحث عن القطعة التي تكمله وتتّممه. وكانت الأميرة حزينة، لأن قلبها كان وحيدًا، لم يجد القطعة المتّمة له بعد، رغم طول بحثها. قضت الساعات الطويلة في حديقة القصر، تبحث بين الورود والفراشات، فلم تجد. استلقت على ظهرها فوق الحشائش النديّة، تُحدّق في زرقة السماء، تُضيّق عينيها لتبحث بين أشعّة الشمس المبعثرة من وسط الغيم تارة، وتوسّعهما لتفسّر أشكال الشّحب الهشّة المندوفة تارة أخرى، ورغم ذلك، لم تجد ضالّتها. سهرت ليلة وراء ليلة تبعثر النجوم بنظراتها التّواقّة، وتقلّب القمر بعينيها، ليستدير بدراّ نما من بذرة الهلال، من دون أن تبلغ مسعاها، حتى كان يوم افترشت فيه الأميرة رمال الشاطئ، وقد أرسلت نظرتها إلى الأفق. مدّت يدها برفق داخل صدرها، لتخرجها وقد توسّد قلبها كفّها لحظات، قبل أن تُودعه جوف زجاجة لها لون البحر والسماء. تحرّكت شفّتها بكلام لم تسمعه أذن، لكن عينيها اللتين انغرست نظراتهما

وسط زرقة البحر أرسلتا الرسالة بوضوح، قبل أن تُلقي بالزجاجة لئيبتلعها الموج».

كان الصغير تحت الغطاء، تشدُّه كلمات الحكاية بقدر ما تثير خوفه على حياة الأميرة. تخرج الكلمات من فم أمه، كل منها كئذفة ثلج فاتنة بالغة الرقة بزخارفها البديعة. لكن تراكمها، كلما توغَّلت أحداث القصة، يخلق دثارًا ثلجيًا قارسًا، يرتعد له قلبه. في كل ليلة، يتحَيَّن اللحظة التي تُخرج فيها الأميرة قلبها، كي يقفز وسط الأحداث وينقذها، يقدِّم قلبه بعد أن تخلع هي قلبها من صدرها، وقبل أن تلقي به بعيدًا، كي تتراكب قطعنا البازل ويكملها بقلبه هو. لكن، بقدر ما كانت تنتابه الرعدة من كلمات الحكاية كل ليلة، كان صوت أمه الدافئ الذي تحكي به الكلمات يدثِّره بنعاس يجذبه للأعماق، مثل رمال متحركة، كلما قاومها غاص في قلبها أكثر وأكثر. يسقط جفناه كل ليلة، بينما تتسرب لمسمَعَيْهِ كلمات الحكاية، ولا يستطيع أن يمد يدًا لمنع الأميرة من إغراق قلبها في اليم. كلَّ ليلة يطلب من أمه أن تعيد الحكاية، وكلَّ ليلة يخذل أميرته فتموت، لكنه أبدًا لا يستسلم، ويعقد العزم على تكرار المحاولة في الليلة التالية.

كما هي عادته كل يوم، مات في تمام العاشرة مساءً. كانت لا تزال ممسكة بالزجاجة التي تحتضن قلبها، لم يسعفها الوقت حتى تُلقي بها بعيدًا لتبتلعها أعماق الزرقة قبل أن يموت. كانت قد قضت فترة طويلة، بدت لها دهرًا، حبيسة عالمها الصغير، قبل أن تكتشف الأزرق الشاسع اللامتناهي الذي يمتد حدًّا الأفق. كانت الأميرة قد تعبت من نداءات قلبها التي يرسلها من محبسه

في قفص صدرها وحيداً يعاني الملل. لكن ما فاق تعبها هو سأمها من الزيارات المتكررة لأمرء القمص المجاورة لها في الكتاب. كانوا يتوافدون تباعاً، عارضين قلوبهم قطع بازل مختلفة الألوان والأشكال، علّ واحداً منهم يتوافق مع قلبها ويتّممه. كان بعضهم منقراً حادّ الزوايا، ترفضه الأميرة من أول وهلة. البعض الآخر كان يبدو انسيابياً جذاب اللون، إلا أنه كان خشن الملمس، يسبب لقلبها حكة عندما يلامسه. كان بعض القلوب النادرة يتوافق مع شكل قلبها، ويتراكب معه بدقة، وكأنه خلق ليكمّله، إلا أنه كان مثل مفتاح ينسلّ داخل القفل، ويستقر بداخله، من دون أن ينجح في أن يديره ليفتحه، فيظل قلبها مغلقاً رغم كل شيء. وذات يوم انفتحت حدود عالمها الصغير، لتكتشف عالماً آخر لا حدود لرحابة زرقته.

كانت قد اعتادت منظر السماء البيضاء التي تتناثر على صفحاتها غيوم الكلمات المنمّقة بلونها الداكن. يوم ارتفعت سماؤها لأول مرة، لتكشف عن لونٍ أزرق جذبها لأعماقه، أفلتت من أعماقها شهقة. أخذت تستكشف ذلك العالم الجديد الذي بان لها وقد فُتنت به. كل يوم، في الموعد نفسه، تجلس في انتظار ارتفاع السماء البيضاء الضيقة، وانكشاف الأفق الرحيب القابع خلفها. تتناهى لمسمَعِئها نبرة دافئة تدغدغ أذنها، وتناديها بكلمات تعويذة غامضة. كانت قد سمعت عن الأمير المفقود من القصة المجاورة الذي اتّبع أغنية الجنّيّة حتى ضاع وغرق في البحر. لكنها لم تستطع مقاومة سحر النداء الذي يجذبها كالمنومة. تتسلق الأسطر المتتابعة حتى تصل إلى قمة الصفحة البيضاء، وتقف على حافة الأفق برزقته الفاتنة، تتطلع إليه بشغف.

ذات مرة، جذبها الصوت الدافئ أكثر من ذي قبل، فقفزت من موقعها عند قمة الصفحة، لتتعلق بحافة الكتاب. بذلت جهدًا خارقًا لتحفظ توازنها من دون أن تسقط فترتطم بالسطور وتجرحها حواف الكلمات. لأول مرة ترى الصغير الذي اختفى جسده وسط الزرقة، لا يظهر منه سوى يدين تتشبَّثان، وعينين متسعيتين في رعب. فكَّرت أنه لا بد أن يكون هو الأمير المفقود، يصارع الغرق، وتستجدي نظراته العَوْن. قرَّرت من دون تفكير أن تنجده. مدَّت يدها برفق داخل صدرها لتخرجها وقد توسَّد قلبها كَفَّها لحظات، قبل أن تُودعه جوف زجاجة لها لون البحر والسماء. تحرَّكت شفتها بكلام لم تسمعه أذن، لكن عينيها اللتين انغrust نظراتهما وسط زرقة البحر أرسلتا الرسالة بوضوح قبل أن تلقي بالزجاجة ليبتلعها الموج. كل يوم، في الموعد نفسه، تتحيَّن اللحظة التي تلقي فيها إليه بقلبها، علَّه يصل إليه، فيكمل قلبه الذي يصارع الغرق. وفي كل ليلة ترى جفنيه ينسدلان، لتتغلق عيناه ويموت، بينما تهبط السماء البيضاء، ليضيق عالمها مرة أخرى قبل أن يسعفها الوقت لنجدته. لكنها أبدًا لا تستسلم، وتعد العزم على تكرار المحاولة في الليلة التالية.

لن يموت أحد الليلة. هكذا قرَّر الصغير، وقد عزم على الاستعانة بالقليل من السحر. لا تكفي النوايا الحسنة وحدها، بل يلزم اتخاذ الاحتياطات والتدابير اللازمة أيضًا لتحقيق ما يريده، ولضمان السلامة. هكذا أخبرته والدته كلما ارتكب خطأً وتحجَّج بحسن نواياه. لن تكفي محاولاته المستميتة في مقاومة زحف النعاس، ورغبته الحارقة في إنقاذ الأميرة. سيحتاج إلى مساعدة لن يوفِّرها له إلا ذلك التراب السحري الذي تُخلِّفه الجنِّيَّات كل ليلة

على رَفِّ كتبه بعد تحليقهن بين الحكايات. أزاح مجموعة كتب الحكايات الخرافية التي ارتكنت على جانب الرّف، ومسح بيده التراب المتراكم خلفها. احتفظ بكنزه في كَفِّه، بينما خبط كتابًا على جانب الرّف باليد الأخرى، وهو يُقَرِّب أنفه منه، ليستنشق بعمق ذرّات الغبار المتصاعدة. سعل بشدة، ودمعت عيناه. استجمع شجاعته، واستنشق مرّة أخرى، وهو يواصل السعال. كل شيء يهون مقابل إنقاذ أميرته. توجّه إلى فراشه وهو لا يزال يقبض على تراب الجنيّات السحريّ الذي سيكُون كفيلاً بإيقاظه بنوبة سعال كلما شعر بزحف النوم يغزو جفنيه. الآن صار مستعدًّا كي يحارب من أجل أميرته.

لن يموت أحد الليلة. هكذا قرّرت الأميرة، وقد عزمّت على فك طلاسم التعويذة السحرية التي تفتنها بنبرتها الدافئة كل يوم. باتت مقتنعة أنها، لو استطاعت الفهم، ستتمكّن من إنقاذ الأمير. كلّ يوم تسحرها الكلمات، وتجذبها لحافة الأفق العميق الزرقة، لكن القدرة على القفز واقتحام تلك الأعماق السحيقة لن تتأثّى لها سوى بفهم سر التعويذة. لن تُضيّع الوقت، ولن تنتظر ارتفاع السماء. تسلّقت السطور، الواحد تلو الآخر، وأنفاسها تتتابع بصوت مرتفع. وصلت إلى قمة الصفحة البيضاء وهي تلهث. جلست وقد انكمش جسدها في المساحة الضيقة، تضغط السماء المنخفضة عليها، فتلهث أكثر. تغمض عينيها، وتغمغم بتعويذة خاصة بها في انتظار انفراج ينفث بعده أمامها البراح. تستحضر الأزرق خلف جفونها المغلقة، وتستجمع شجاعته وهي لا تزال تغمغم بتعويذتها، وتنتظر.

«افترشت الأميرة رمال الشاطئ، وقد أرسلت نظرتها إلى الأفق. مدَّت يدها برفق داخل صدرها، لتخرجها وقد توسَّد قلبها كفَّها لحظاتي، قبل أن تُودعه جوف زجاجة لها لون البحر والسماء. تحرَّكت شفاتها بكلام لم تسمعه أذن، لكن عينيها اللتين انغrust نظراتهما وسط زرقة البحر أرسلتا الرسالة بوضوح، قبل أن تلقي بالزجاجة لبيتلعها الموج». تسرَّب الصوت الدافئ لمسمعي الصغير، وقد قبضت كفَّاه على طرف الغطاء الأزرق في تحفُّز. ها هي اللحظة الحاسمة، وها هو على أهبة الاستعداد، وقد ضاقت عيناه تركيزًا، لا نعاسًا. يبعد يُمناه عن طرف الغطاء، ويضعها على صدره جهة اليسار. عيناه مثبتتان على صفحة الكتاب.

شعرت الأميرة بسحر التعويذة يناديها، وقد ارتفع الثقل الضاغط عن كاهلها، واتسع المدى من حولها. فتحت عينيها لترى الزرقة الشاسعة امتدادًا موصولًا بما استحضرتُه خلف الجفون المغلقة. أرهفت السمع للكلمات، تستحضرها حرفًا حرفًا. تُحرِّك شفتيها لتكرر الأصوات وتعيدها. تمتزج حروف التعويذة مع حروف تعويذتها الخاصة التي كانت تتمم بها قبل لحظات. فجأة، تشرق المعاني في قلبها لتبهر لها، وقد تطابقت كل الكلمات الغامضة المختلطة، واتَّضحت معالمها. استحالت غيوم الكلمات الداكنة في سمائها الخفيفة، وتلك التي تشكَّل قضبان سطور عالمها الضيق، كائنات خفيفة هشة تُلاعِبها. تركض الكلمات، فتطاردها الأميرة، وتقبض على معانيها، تُرتبها، وتعيد تشكيلها لتكوِّن معانيها الخاصة. شكَّلت منها سلالم متراصَّة، اعتلتها برشاقة، لتصعد من حافَّتْها البيضاء حدَّ الزرقة إلى قلب الزرقة ذاتها. ذراعها ممتدة أمامها، وفي كفَّها زجاجة القلب، وعلى وجهها ابتسامة. الصغير الذي كانت

عيناه مثبتتين على الكتاب انفرجت شفتاه عن ابتسامه وهو يمد ذراعه حاملاً قلبه الذي كان مبتسماً هو الآخر.

من دون تبادل أي كلمات، أخرجت الأميرة قلبها من الزجاجه، وقرّبت من قلب الصغير في كفه الممدودة. تعانق القلبان وقد تداخلت حدودهما حيث التقيا، بينما انفتحت حدود جديدة لم تكن هناك من قبل من الجهة الأخرى. احتفظ كلُّ منهما في رُوحه بالصورة، رغم أنها لم تكن كاملة يحتضنها إطار، بل كانت قطعة من بازل أكبر لا يزال أمام كل منهما رحلة طويلة للبحث عن ما يكملها. اتسعت ابتسامتهما وكلُّ منهما يعيد قلبه لحنايا الصدر. اعتلت الأميرة الزجاجه، وقذفت بنفسها في جوف الزرقه الشاسعة، وهي تستعين بالكلمات التي ملكت ناصيتها مجدافاً لتسلك طريقها.

تعجبت الأم من بقاء الصغير مستيقظاً، ومن ابتسامته التي تعلو شفتيه رغم تأخر الوقت وفوات موعد نومه المعتاد. توقفت عن الحكي قليلاً تتأمله، وقد لاحظت أنه لم يكن يسمع كلماتها. استفسرت: هل يرغب في النوم، أم يريد أن تكمل الحكي؟ ازدادت ابتسامته التي لم تفهم ما وراءها اتساعاً وهو يخبرها أن الأميرة سلكت طريقها لتكمل حكايتها بنفسها، ويطلب منها أن تترك الكتاب مفتوحاً على الصفحة ذاتها قبل أن تطفئ النور.

الطريق

كانت تجلس في البقعة نفسها كل يوم على جانب الطريق، حتى اعتاد المارة هيتها، فلم تعد تجذب الاهتمام. ملابسها مرقعة بألوان الطيف، لكنها حافظت على نظافتها قدر المستطاع، وسط أتربة الشارع وعوادم السيارات والفضلات والقمامة المتراكمة في كل ركن. تستقر بجوارها حقيبة قماشية ضخمة الحجم بصورة كاريكاتورية، تتبادل فيها درجات الأصفر والبرتقالي الثرثرة مع همسات بسيطة من الحمرة. أما ملامحها هي التي تغصت، فكانت تُغري بالتنقيب بين طياتها عن كنزها المخزون من الحكايات التي شهدتها تلك العينان، ببريقهما الطفوليّ المرح، الممتزج رغم ذلك بحكمة الزمن. لكن لم يكن يتأملها أحد، ولم يلحظ سرّها سوى طفل تسحبه أمه من يده على عجل كل صباح، كي يلحق بمدرسته، وتلحق هي بموعد عملها الذي تدور في ساقيته كل يوم. يلتفت برأسه للوراء، بينما جسده يسبقه، يكاد يتفسّخ بين كف أمه التي تجذبه؛ وبين التصاق نظرتة بنظرتها، وابتسامته بابتسامتها. تغمز له بخبث متواطئ، لا تشي به ملامح سنّها، فيلوّح لها بكفه الحرّة، قبل أن يبتلعه منحني في الطريق فيغيب عن ناظرها.

تُقلّب أكوام النفايات المتراكمة، وتنتقي منها قصاصات الأوراق وصفحات الصحف القديمة. تجلس لتنفض عنها الأتربة برفق، وتمسحها بأناملها بحنان، قبل أن تدسّها بعناية في حقيبتها. قد تهب نسمة تتطاير معها أوراق شتّى، لترسم حركات راقصة في الهواء، فتقوم هي، بخفة لا تتناسب وسنّها، لتطارده الأوراق، وتمسكها لتلحقها بأخواتها في طيات الحقيبة المنتفخة. تبدو في حركتها وكأنها تطفو أو تنزلق بانسيابية، لا تخطو فوق وجه الطريق المترب

بحفره، وحافة الرصيف ببلاطه المتكسّر. تتجمّع لديها أوراق اليوم، فتبيت ليلتها ترتّب القصاصات بعد أن تعانق كلماتها بنظرتها، وتقسّم كل مجموعة تبعًا لترتيب خاصّ لا يعلمه سواها. تنتهي من عملها، فتسوّي ملابسها، وتعتدل في جلّستها مشدودة الظهر مرفوعة الرأس، تتأمّل المارّة. تُدوّن ذاكرتها ملحوظات مقتضبة، تبقى مرتّبة ومنتظمة في عقلها، كقطّ صغير جلس منتبهاً وقد التّف ذيله حول قدميه في أناقة. لكن ملحوظاتها تلك في دفتر عقلها، مثل القطّ أيضًا، كانت دومًا متأهبة لأي لحظة تحتاج فيها للوثوب من ثنايا الذاكرة إلى مقدمة العقل الواعي، حتى تخرج إلى حيز التنفيذ.

جلستها اليومية المعتادة شهدت مرور سيدة ترتدي عوينات ذات إطار فضيّ أنيق، وتحمل حقيبة جلدية لها لون بنيّ لا يثرثر ولا يهمس بالحكايات كحقيبتها التي تزدهي بألوان الشمس. همس البرتقالي بشيء ما للأحمر، وتبادلا ضحكة خافتة، قابلها البنيّ بتجهم، وتنحج بخشونة. أخرجت السيدة صاحبة العوينات من حقيبتها دفترًا، وقبضت أناملها على قلم في وضعية الاستعداد للكتابة، بينما كانت السيدة على حافة الرصيف تبتسم، والقط الصغير في عقلها يحرك ذيله بنعومة، ويتمطّي قبل اتخاذ وضعية الوثوب. تمدّد بسيط في ركن الفم المشدود لصاحبة العوينات كان هو مفهومها عن ابتسامة تُقدّمها قبل أن تتحرك شفتاها ببعض الأسئلة. مدّت صاحبة الحقيبة يدها تُرَبّت على حقيبتها، وكأنها تطمئنّها، وقد تعالت، حتى وصلت إلى مسوّعها، تساؤلات الحقيبة التي فشلت إجابات القصاصات الراقدة في أحضانها في طمئننتها. صاحبة العوينات تسأل وتدوّن، بينما سيدة الطريق تجيب بصوتها الذي تُناقض نعومته الهامسة خشونة كفيها وتجاعيد وجهها.

«اسمي طماطم. هكذا وجدتُ الكل يناديني منذ وعيت. أخبرتني قصاصاتي أن اسمي فاكهة، رغم أن الجميع يعامله معاملة الخضراوات! لم أجد من يتقبَّل الطماطم بوصفها فاكهة، ولم تستطع الطماطم الحياة وسط الخضراوات التي تعيِّرها بكونها دخيلة، رغم أن الطبخ كله لا يستقيم من دونها. لذا اخترتُ البقاء هنا، واتباع الطريق الذي تقودني إليه قصاصاتي بكلماتها. لا تفهمين؟ لا عليك، لا يهم. لا، لست أدري كم بالضبط أبلغ من العمر. فقط، أذكر أنني كنت أجلس هنا منذ كان الميدان تتوسطه الحديقة، قبل أن تُقتلَ أشجارها وتُبنى مكانها تلك النافورة الأسمنتية المجذبة المحاطة بالسور الحجري. بالتأكيد واثقة! كان ذلك منذ زمن بعيد؟ وماذا في ذلك؟! أذكره بوضوح! حسناً، لا بأس. لا بيت لي، ولا عنوان. أبيتُ حيث تأخذني الكلمات. أتتبعها فتقودني للطريق. أي كلمات أقصد؟ أي كلمات! كل ما أجده في القصاصات. لا، لا أريد فراشاً بين جدران، ولا سقفاً يحجب السماء. شكراً لكرمك، لكن الكلمات لا تحب المساحات المغلقة. تختنق معانيها وتموت. حقاً، أشكر اهتمامك، لكن لو رحلتُ لن يجد المارة من يرسل إليهم القصاصات، ولن تصلهم كلماتهم التي تدلهم على طرقهم الخاصة».

تجهمَّ البنيُّ بشدة، حتى إن جلد الحقيبة تجعَّد بعض الشيء، بينما كانت خربشات القلم على دفتر صاحبة العوينات حادة عالية. اندمج البرتقالي والأصفر مع الأحمر في نقاش محموم، بينما ضاقت عينا القط في تركيز، لتحين اللحظة المناسبة للوثوب. مرت أم الطفل ساحبة إياه من يده في طريق العودة إلى المنزل، فالتفت بقلق نحو سيدة الطريق، وهو يشاهد تجهمَّ الحقيبة البنيَّة، وانهماك صاحبتها في جرح الأوراق بنصل قلمها. لمحت نظرته، فأرسلتُ إليه ابتسامة مطمئنة. قبل أن يختفي في منحني الطريق،

لمح قَطًّا صغيرًا يثب بخفة، بينما يد صاحبة الحقيبة الضخمة تقلب قصاصاتها. توهَّجت الحقيبة كألف شمس وشمس، بينما احتضنت اليد العجوز بين أناملها ورقة صغيرة حالت ألوانها، وتبين على وجهها بالكاد كلمات كالهمس. قرَّبت السيدة يدها من فمها مغمِّمة بكلمات مجهولة للورقة، قبل أن تَرْمَ شفيتها وتنفخ وكأنها ترسل قبرة في الهواء. فتحت أناملها المغلقة، فانبعثت نَسمة خفيفة، حملت معها القصاصة التي تراقص برقة حتى اقتربت من فم الحقيبة البنيَّة المزموم بحزم. دغدغت الورقة حافة الجلد الجاف، حتى افتَرَّ عن ابتسامه تغصَّنت لها جوانب فتحة الحقيبة، عوضًا عن التجعُّد المتجهَّم للون البنيِّ. هبطت القصاصة برقة، حتى استقرَّت في جوف الحقيبة البنيَّة التي احتضنتها، واستحال البنيُّ الداكن درجة أكثر إشراقًا، من الهاfan الممتزج بوهج البرتقاليِّ. توقَّفت صاحبة العوينات فجأة عن خربشاتها، ورفعت رأسها، وابتسمت ابتسامه واسعة، وقد لانت نظرتها من وراء عدساتها الزجاجية. تمطَّى القط وهو يلحق يده، قبل أن يلف ذيله حول جسده ويستقر مرة أخرى. عادت الألوان لثرتتها الحميمة، بينما عينا صاحبتهما تتابعان خطوات صاحبة العوينات وهي تبتعد بخفة في طريقها.

عزف منفرد

انفصل عن باقي أعضاء البعثة الجيولوجية التي جاء بمصاحبتها لدراسة الوادي. سار ناحية الكهف الذي أتى خصيصًا من أجله. لم يكن يعلم ما ينتظره بالداخل، إلا إنه اتجه نحوه كالمَنوَّم، تمامًا مثلما كان الكهف نفسه يتجه إليه في مناماته ليزور أحلامه كل ليلة.

كانت رأسه تلامس وسادته، فلا يرى خلف الجفون المغمضة ظلال نوم تتماوج بين الكحلي والرمادي والأسود، بل يحرق جفنيه ضياء مبهر، يلتمع بوهج الذهب والزرقة، كنار مقدسة تأبى أن تنطفئ. وفي صباحاته، عندما كان يذهب إلى عمله مرهقًا، وجفونه لا تزال ملتهبة من نيران أحلامه، كان يجتاز يومه بعينين نصف مغلقتين، ويتحجّن الفرص حتى يريح رأسه على مكتبه، علّه يلتحف بدثار النوم البارد بضع دقائق تطفئ اشتعال جفونه. وذات صباح، اتسعت عيناه عن آخرهما وهو يرى الصورة ويسمع حديث زملائه عن البعثة المتجهة لاستكشاف الوادي الصحراوي. كانت الصورة لرمال خشنة، تبدو مثل حصّى ملحيّ تتلاصق حبّاته وكأنها لزجة مثل العسل. أدرك على الفور أن هذه الرمال هي التي تشعل جفنيه سهادًا في كل ليلة. لا يعلم كيف واثاه هذا اليقين، لكنّه قرر المطالبة بالانضمام إلى البعثة الاستكشافية، وها هو على مشارف الكهف لاستجلاء حقيقة أحلامه وناره المقدسة.

توقف عند فوهة الكهف، وانحنى حتى جلس القرفصاء. خلع القفّاز المطاطي الأبيض عن يمينه، متجاهلاً كل التحذيرات المسبقة، وأمسك بضع حبّات من الحصى الملحيّ اللزج الذي تماهى لونه بين بياض جيريّ وُصفرة فاتحة مائلة

إلى الذهبي. التصقت الحَبَّات بأطراف أنامله، وكان يعلم أنه لن يستطيع الخلاص منها من دون أن يتخلص من جلد أنامله، لكنه لم يأبه لذلك. التفت ملقيًا نظرتة خلفه، تجاه باقي أعضاء الفريق، لكنه لم ير أيًّا منهم. بدا وكأن رمال الوادي استحالت رمالًا متحركة، ابتلعتهم لأقصى أعماقها اللزجة. سدَّ نظرتة إلى فوهة الكهف مرة أخرى. لم يكن يعلم كيف حدَّد طريقه، وسار إليه بخطوات من يقين ثابت. بدا وكأن نداءً من الداخل يجتذبه لمصيره المحتوم. «ما الذي أفعله هنا؟» قالها محدثًا نفسه بنبرة هامسة، لكن الصدى الذي ارتد إليه من قلب الكهف كان مرتفعًا رائعًا ونقيًا، رنانًا تردَّد في أرجاء الوادي: «هنا، هنا، هنا». بدا النداء كأصابع تشير إليه لتسحبه نحو العمق المجهول للكهف. تبع النداء منوَّمًا، وبقايا الرمال اللزجة لم تزل ملتصقة بأصابعه. ما أن دلف، وهو يمد كَفَّهُ أمامه يتحسَّس طريقه، حتى اشتعلت الظلمة بوهج أحلامه. الوهج الخافت لحَبَّات الرمال الملتصقة بأنامله أثار النقوش التي كانت تغطِّي جدران الكهف، وكأنه زر ضغطه لينير كَشَافًا مبهرًا غمره فيض نوره. كانت النقوش باللونين: الأصفر الذهبي، والأزرق المتدرج بألوان البحر. تماهى ضياء اللونين معًا لتعمي عينيه النار ذاتها التي كانت تحرق جفنيه كل ليلة.

أحس بخطواته تتناقل، حتى بدا وكأنه يخوض عبر بحر سميك من عسل، وبجفنيه يتثاقلان هما أيضًا، حتى أغمضهما الضياء المتوهج، بالإضافة لما بدا كأنه نعاس غلبه، رغم تيقُّظ أحاسيسه واستشعاره كل ما يدور من حوله. استشعر، وجفونه مغلقة، أنه يرى بعينين غير عينيه، عينين التمتع عسل حدقتيهما مع التمتع ذهب الشمس فوق صفحة موج هادئ الزرقة. رأى نقوش جدران الكهف استحالت أمامه مشاهد وأحداثًا، تتابعت كصفحات حكاية من

كتاب حيّ. الشمس أشرقت بالكاد، تلتمع بضوئها رقرقات الموج، بينما العينان العسليتان تتقاذف نظراتهما تُسابق ذهب الشمس المتكسر، قبل أن يختفي التماعه وسط موجة لعوب تلاحق سابقتها. تقف صاحبة العينين مترقبة، تتحيّن اللحظة التي تذوب فيها حرارة الذهب بين أحضان الزرقة الباردة، وبمهارة فائقة، تصيد ما يتها مسان به من نغم. تلتقط كل نغمة برقة بين أطراف أناملها، وهي حريصة على ألا تبدّد موسيقاها فتستحيل نشارًا، وفي الوقت نفسه، تمسكها بحيث تمنعها من أن تتفلّت منها هاربة. تجمع النغمات عند شروق الشمس الأول من كل أسبوع، ومرة أخرى عند الغروب. نغماتها الصباحية بألوان ساخنة، ونغمات المساء لها ألوان نسيم رطب. تنثر بعض ما اصطادت من نغمات، تدور حول نفسها بخفة، فاردةً أناملها، تاركة الموسيقى ترسم في الأفق قوس قزح، قبل أن تأوي إلى كهفها في نهاية يومها. تمزج ما صادته من النغم، وتصدح بأغانيها، يتردد صداها، فيحمله النسيم العابر من الكهف لأرجاء الوادي، مؤذنة بذلك بالسماح لباقي مَنْ في الوادي بالصيد. كان العُزف الذي سرى بينهم، والتزم به الطرفان منذ الأزل، يقتضي بأن البحيرة لها في أول يوم من أيام أسابيعهم، ولهم باقي أيام الأسبوع. تستحيل البحيرة أمامها تحت وهج الشمس امتدادًا لعسل عينيها، تستخلص منه موسيقاها، ثم تعاود الأمواج جريانها المعتاد باقي الأسبوع، ليصيدوا هم من قلبها السمك.

كانت أغنياتها تستجلب الدفء في الصباحات الشتوية، ويستمر صداها يؤنس برد الليل. وفي الأيام التي كان وهج الشمس يتلكأ فيها، منصرفًا عن اللعب مع الموج إلى حين، مفضلاً استكشاف الحقول ومُشاكسة المارّة في الطرقات، كانت أصدااء الأغنية الأسبوعية ترطب من قطرات الملح الحارقة المنزقة على الجباه. أصدااء موسيقى الكهف كانت تصاحبهم في كل تفاصيل

حياتهم اليومية، وينتظر صغارهم بشغف وترقب صدى الأغنية الجديدة كل أسبوع، حتى يحفظوا نغماتها التي يَرْمُون شفاهم الصغيرة ويصفرونها وهم يلعبون في نهاراتهم الدافئة، أو يطالبون أمهاتهم بالترنم بها تهويده قبل خلودهم إلى النوم. تُصاحب الأغنيات الصيادين في مراكبهم التي طلّوها باللونين الأزرق والأصفر، تُغري السمك حتى يتقافز بشباكهم وهو يلتمع تحت الشمس متراقصًا مع النغم. كان العجائز والحكماء ينصحون الشباب والصغار دومًا: «لا تنس أن تحمل في روحك نغمًا، وفي قلبك أغنية». وكان الصيادون، خاصة، يعرفون قيمة تلك النصيحة التي يعتمدون عليها لاستجلاب الرزق.

وذات يوم، انطلقت نغمات الأغنية الجديدة، يحملها لهم النسيم، مؤذنة بافتتاح الصيد الأسبوعي ابتداءً من صباح اليوم التالي. لكن كبير الصيادين، على غير العادة، قرر أن يُجرّ بقاربه ويلقي شباكه في اليوم ذاته، من قبل أن يخفت رنين النغم في قلب الكهف، وقبل أن يصير صدّي. زعم أن الصيد يكون أوفر حظًا في ذلك اليوم، وأن معظم السمك تغويه النغمات السحرية، فيتبع صاحبها إلى أعماق كهفها، بينما لا يتبقى لهم سوى أقل القليل، واستشهد على صدق أقواله بما يشاهدونه بأعينهم من غواية النغم للسمك. عمّت الفوضى أرجاء الوادي، ما بين غضب عارم وذعر من جهة، وطمع وتأيب من جهة أخرى. انطلق نصف الجمع نحو البحيرة للصيد، بينما اتجه النصف الآخر ناحية الكهف؛ حيث جثوا على رُكبهم، ورؤوسهم منكّسة، البعض يُهمهم بالنغم، والبعض يُتمتم بالأغنيات، في مزيج من الأسى والخوف والاعتذار.

عند الغروب، عادت قوارب الصيد تجر خلفها شباك خيبة لم تُرَق سوى بأعشاب ذابلة الصفرة، تشابكت مع خيوطها المتقاطعة. كان كبيرهم يُلَوِّح بقبضته وهو يصرخ بأن ليس للشيطان دومًا لون حمرة السعير، بل قد يكون الشيطان بلون إشراقة الشمس وبريق الذهب. قاد جماعة الصيادين الغاضبين تجاه الكهف، وقد عزموا على إسكات النغم وإنهاء الأغنيات. نهض الجمع الجاثي أمام الكهف واقفين، وقد شكّلوا جدارًا عازلاً بين الصيادين المعتدين وبين فوهة الكهف. ارتفعت أصواتهم بالنغم والأغنيات في مقابل الصيحات الغاضبة والقبضات الملوّحة في تهديد. قبل أن يحدث الاشتباك، وقبل أن تحطّم أي قبضة النغم محيلة إياه نشارًا منثورًا، التمع برقّ أعمى الأعين، تلاه دويٌّ رعدٍ تردّد صداه في الوادي من دون أن تصاحبه قطرة غيث ترطب النفوس الملتهبة. تجمّد الحشد فجأة، وقد لاحظوا أن الصدى الصادر من الكهف ما هو إلا تكرار لأصواتهم هم، ولصوت الرعد المتقطع. عمّ الصمت لحظات قبل أن يتساءل أحدهم في خوف: «ماذا حدث؟» ترددت الكلمة واضحة رنانة في بدايتها، قبل أن تخفّ تدريجيًا لهمس يجر خلفه ذيول أسى: «حدث، حدث، حدث». صرخ كبير الصيادين بعصبية: «ما هذا؟» ليجيبه الصدى بحسم: «هذا، هذا، هذا». صرخ بعصبية أشد: «تسخر منا تلك الشيطانة! عليها اللعنة!» مرة أخرى، تردد الصدى: «لعنة، لعنة، لعنة!» أزاح الواقف أمامه بغضب وحشيٍّ وهو يندفع عازمًا على ولوج عتمة الكهف، لكن البرق أعماه قبل أن يشق الرعد بطن السماء مستنزلًا ما حملته من سيول. أغرقت الأمطار الوادي حتى فاضت البحيرة. وفي صباح اليوم التالي كان كل شيء قد هدأ، وكأن شيئًا لم يكن. لا شيء يقطع السكون الذي عمّ سوى ريح تصفّر عبر طرقات خالية اكتسى وجهها برمال ملحية خشنة لها لزوجة

العسل. الفيضان انحسر، والبحيرة نفسها جفَّت تمامًا، وكأنها تبخّرت ليلاً ولم يبق لها أثر. سكان الوادي أيضًا تبخرت مياه الحياة من أجسادهم التي لم يبق منها سوى ملح أطماعهم وعسل أغانيهم يمتزجان معًا ويفترشان الطرقات.

خلف الجفون المغلقة، خفَّت الوهج، وانطفأت النيران بانطفاء الحكاية التي حكته له نقوش الجدران. فتح عينيه وهو يتلقّت حوله، وكأنما يتوقع أن يشاهد المناظر التي رآها للتو من خلف جفونه لا تزال منعكسة أمام عينيه المفتوحتين عن آخرهما. مد يده يتحسس النقوش، فتساقطت عن أنامله حَبّات الرمال الملتصقة بها. حُيِّل إليه أنه يسمع لحنًا وحيدًا يُعرّف في مكان ما من أعماق قلبه، تُردّد أصداءه حنايا روحه. تعالت الأصداء داخله حتى صعدت إلى شفّتيه، يترنم بها عاليًا، فتتجاوب معه أصداء الكهف، وتُردّها برنين حملته الرياح، لتملأ الموسيقى الوادي من جديد.

قلب الحكايا

غاصت يده في صدره لحظات قبل أن يستخرجها وقد التقط قلبه من بين الضلوع. حبس كل من أحاطوا به أنفاسهم، وضاحت الحلقة من حوله أكثر. قلب القلب بين الكفّين برهة، وعلى دقائقه شرع في الحكى بصوت شجيّ كأنين ناي خافت. كل الأذان مشرّعة لتغترف كلماته بنهم، حتى أذني ذلك الذي وقف بالباب حارسًا، ليحذرهم في الوقت المناسب إذا ما دعت الحاجة. كلماته تصقل حوافّ الواقع الحادة من حولهم، لتلمس الحكاية أرواحهم بنعومة غيمة من حلم.

«في اللازمان، قبل الزمان بزمان، كانت كل الحكايات التي كانت، والحكايات التي يمكن أن تكون يومًا ما، تسكن بين أصابع من ملكن خيوطها، ينسجتها كيفما شئن من فوق سماوات الإلهام السبع. اختلف الناس في العدد. قالوا ثلاث رابعهن كرسِيَّهن؛ وقالوا تسع عاشرهن كرسِيَّهن، والحكايا أعلم بعدتّهن. كانت الربّات يتبادلن الجلوس على الكرسي، كل واحدة منهن يومًا. تجلس صاحبة الكرسي لذلك اليوم تجمع من النجوم حكاياتها التي تغزل خيوطها، تلوّنها بألوان الطيف السبعة، تنسجها بعناية، ثم توزّع نسيجها تكسو به العالم، ليتلوّن بألوان الحكايا. يوم اختل النظام وحدث الخلاف على من أحق بالجلوس، اختلّت ألوان الكون، وتلاشى قوس قزح، ليحل البياض والصمت على كل شيء. صارت السماء باردة عارية إلا من أسمال سحب رمادية بالية. لم تعد هناك قصص تُحكى، ولا كلمات يرثبها الحكّاءون، يروونها، ويروون بها العالم الذي أجذب، فقرروا الثورة على الربّات، والاستيلاء على الكرسي، وعلى مقاليد الحكى.

اجتمع مجلس الحكّائين، وحددوا ساعة الصفر لثورتهم. جمعّتهم الضرورة
المُلحّة لتسجيل ذاكرة العالم وكتابتها من حكايا، في مواجهة النسيان
والصمت الذي حل بعد خلاف ربّات الإلهام وصراعهن على الكرسي. في لحظة
البرزخ الخاطفة التي يتلاقى فيها العاشقان، الشمس والقمر، قبل ولادة الفجر
الجديد، اتفقوا على أن يسلمّ القمر للشمس حصيلة النجوم من الحكايا،
لنتولى الشمس بدورها توزيعها على السحاب والطيور.

في اليوم الموعود، تم تنفيذ الخطة، وهبط الكرسي من سماوات الإلهام السبع
إلى الأرض. لم يكن عرش الربّات مبهرجًا كثير الزخارف كما قد يتبادر إلى
أذهان أولئك الذين لم يكونوا قريبين من قلب الحكايا. كان أولئك الذين لا
يرون من الأمور سوى ظاهرها يعتقدون أن العروش، كي تليق بالملوك، يجب
أن تكون صاحبة برّاقة، تُغوي الناظرين بزخرفها وزينتها. لكن العالمين
بالحقيقة وبمكنون القلوب كانوا على دراية بأن الجالس على الكرسي هو من
يمنحه زينته وبريقه. كان الكرسي بسيطًا في الشكل، شفاف اللون. يجلس
الواحد منهم على الكرسي ويبدأ الحكّي، فيتلوّن الكرسي، ويتغير شكله تبعًا
للجالس ولكلمات حكايته. يراه الناظر وقد اتخذ ألوانًا وزخارف متجددة تبهر
العين وتسحر القلب.

صار القمر في كل ليلة، في اللحظة السابقة لولادة الفجر، يرسل للشمس
محصول النجوم لتلك الليلة. وبعد شروقها، توزع الشمس الحكايات على كل
السحب العابرة في السماء. تجوب بها السحابات الأرض، تفرشها عبر
السماوات بالتساوي، وتنهمر بها قطرات غيث، تحمل كل قطرة منها في قلبها
قصة ترويها. تروي اللون الأخضر الذي يتشربها بنهم، وتتفتح وروده بألوان

الحكاياء، ويطير شذاها على أجنحة الفراشات ومع النسيم، معبِّقًا بأريج الكلمات.

كان للطيور أيضًا نصيبها من الحكايات، تتزاحم عند الفجر لتتسلَّمه من الشمس كل صباح، ثم تطير لتوزعه على العالم. لكل نوع من الطيور حكاياته التي يحملها. العنادل والحساسين وطيور الدوري، بزقزقتها وثرثرتها، تحكي الحياة اليومية بأحداثها وتفصيلها الصغيرة. اليمام يقف على النوافذ والشرفات، يُهدي الأمهات كلمات حكايا ما قبل النوم للأطفال، وكلمات تصلح للغناء كتهويده. أما الحمام، فكان هديله العميق يُهدي الكبار خلاصة الحكمة، يذكِّرهم دومًا بقوة الكلمات وتأثيرها، وبأن العالم نفسه بدأ بكلمة «كن» فكان، يحفر في وعيهم أن للحكاياء القدرة على تغيير العالم، لو استمعنا فقط بصدق وآمنًا.

لفترة، انتظمت أمور الحكايات، واستقر نظام الكرسي على الأرض. تأخذ الشمس في التسلسل رويدًا رويدًا، تختلس لقاءً خاطفًا مع القمر وراء الأفق، قبل أن تُقبَّل وجنة الأرض على الجانب الآخر من الكوكب وتنشر حكاياتها الجديدة هناك. على هذا الجانب من الأرض، تلتهم النجوم بحكايات وليدة في انتظار نسمات النهار الجديد ليحملها مع السحب العابرة وأجنحة الطيور المرتحلة. وفي منامهم، يحلم الحكاؤون بما سوف يقصُّونه من حكايات، وبالأشكال التي سيتخذها الكرسي الذي ينتظر كل من يرغب بالجلوس، ليعيدوا رسمه بكلماتهم، ورسم العالم من حوله في كل نهار جديد.

صمت صاحب الحكاية لحظات، كان كل ما يمكن سماعه خلالها هو دقات قلبه الراقد بين كفيِّه، وصوت أنفاس الجمع اللاهث من حوله، وقد تعلَّقت عيونهم

بالقلب النابض، تستجئته على إكمال الحكاية. جو الترقب المشدود وَثَرًا عبر الغرفة جعلهم ينتفضون فجأة، متأهبين للانطلاق أسهمًا تخترق ظلام الليل الذي تكاثفت طبقاته الداكنة تخفيهم وتخفي الكوخ الصغير الذي باغتهم صرير بابه. خفت التحفز، وحل محله ترقب مشوب بالقلق مرة أخرى، بعد أن تأكدوا أن الصرير مصدره ذلك الحارس الواقف مستندًا إلى الباب، وهو يبذل من وضعه، وينقل ثقله من ساق إلى أخرى، وقد طالت وقفته. عاد صاحب الحكاية يغزل خيط حكايته من حنايا ذاك الراقد بين كفيه.

«كانوا قد عشقوا الحكايا خيولًا بريّة جامحة، لكنهم، مع الوقت، حاولوا ترويضها واعتلاء سهوتها. تناسوا أن الخيل التي ركضت يومًا وسط النجوم في فضاء رحب لا تستكين بين جدران الحظائر يقيدّها اللجام». فهم المستمعون من يقصد، ومن دون سؤال، عرفوا على من يعود الضمير الغائب. الغائب الحاضر في كل مكان وكل حال. الغائب الحاضر الذي يحاولون الاختفاء بعيدًا عنه الآن، وإخفاء قلوبهم وقلب صاحب الحكاية.

«كانت الحكايا أكاليل نجوم تتوجّ الجباه، وكانت أجمل الحكايات أكثرها بريقًا. لكنهم جعلوا النجوم اللامعة تهبط من عليائها فوق الرؤوس إلى أكتافهم؛ حيث طالها رذاذ البصاق من كلماتهم التي فقدت طزاجتها، وحيث يمكنهم أن يرمقوها بطرف أعينهم من وقت إلى آخر، للاطمئنان بأن أجنحتها لم تنبت مرة أخرى، ولم تحلق بعيدًا. صارت الحكايا نجومًا معدنية باردة فاقدة ألق الدهشة، مقيدة لأكتاف من نصبوا أنفسهم أربابًا جدًا وأوصياء على الكرسي.

بات ممنوعًا على أي شخص السهر في مناجاة حميمية مع نجوم السماء
وحصاد حكاياتها من دون تصريح مسبق، وصار الجلوس على الكرسي حكرًا
على مجموعة الأرباب الجدد، بعد أن تلوّن بالكاكي المموه، وتم إخفاؤه عن
أعين العامة. النحاسيُّ الصَّدِيّ لَوْنُ نجوم السماء، والألسن أحرصها الكاكي
الذي لف الأرض. طفل صغير وحيد انزوى على أحد أرصفة المدينة ذات ليلة،
ورأي في حلمه قلبه وقد اتسع فضاءً لامتناهياً تلتمع خلاله النجوم. من قلبه
أشرقت شمس نارية وأقمار فضية تتراقص وتنزلق فوق أقواس قزح، عابرة
لمساحات زرقة شاسعة لا تحصر مداها العين. فتح عينيه وعلى شفثيه
ابتسامة. مد يديه الصغيرتين داخل قفص صدره الناحل، واستخرج قلبه.
كمن يحتضن يمامة وديعة بين الكفّين، أمسك قلبه برهة، قبل أن يرفع كَفَّيه
عاليًا ويطلق القلب الذي تحرّر وطار بعيدًا حتى اختفى في الأفق. قبل أن
يغيب عن ناظرَيْه، رأى قلبه وقد خَلَّف في أثره ألوانًا كثيرة تتراقص
وتتشكل، وتتولد منها فراشات وطيور ونغمات موسيقية، وأحرف كثيرة
تبحث عن مَنْ يُزاوِجها كي تنجب كلمات وحكايات جديدة. كلما لامست
الألوان شيئًا صبغته بعطرها، حتى أخذ الكاكي يتلاشى شيئًا فشيئًا، وعادت
النجوم في قلب السماء تتلألأ وتغمز ثانية».

غاصت عينا صاحب الحكاية عميقًا في العيون المحمّلة، حتى وصلت النظرة
من العيون إلى القلوب في الصدور. ومع نظرتة، تسرّب صوته يغسل الأرواح.
«من يومها يرتحل الصغير الذي أطلق قلبه يحمل حلمًا في صدره، هاربًا
متّهمًا بالحنين وبالحكايا. يراه الناس من حين إلى آخر مسافرًا في الطريق
الذي رأى قلبه يُحلق عَبْرَه يوم أطلقه. يستضيفه مَنْ يراه، ويُخفيه من النجوم
النحاسية التي تطارده عبر كل الدروب. حيثما يَبْثُ ليلته، يمد يده داخل

صدر مضيئه ليمس قلبه، فثنبت القلوب حكايا، تحصدھا النجوم، وتنشرھا ليتشارك الجميع الحصاد من السماء، من دون حاجة إلى أرباب وكراسي تتوسط ما بين القلوب وحكاياتھا. فإذا صادفته يوماً في طريقك، فدعه يزرع زهوره في صدرك. وإذا وصلت إلى منتهى الرحلة في الصباح، بعد طول أسفار تقطعھا في الرؤيا، لا تنس حكمة الحلم والحكايا. ولو سألك سائل في الصباح: ما ذاك بفؤادك؟ قل: هو حلم وحقيقة، وهو خيال وواقع».

خفت صوت الحكاية، وذاب مع الظلام، وحتى الأنفاس اللاهثة احتبست. لم يبق سوى صوت دقات القلب بين الكفين الممدودتين، وقد ارتفع لتراه العيون المحملقة بوضوح أكثر. كانت هناك زهرة صغيرة بألوان قوس قزح قد نبتت من وسطه، تشي باليد التي مسته يوماً. فاحت رائحة مسك الليل، بينما ارتفعت الأيدي تتحسس الصدور في حنين، قبل أن يذوب الجمع ويختفي وسط ظلام ليل لا ينيره سوى نجوم بعيدة تتغامز بحكاياتھا.

من هنا تمر الأحلام

لم يرها أحد بوضوح قبل أن تتحول إلى شجرة. لا يذكر أحد ملامحها بتفاصيل محددة، ولا يستطيع أي شخص أن يصفها بصورة قاطعة. يذكرون فقط جلستها تلك عند المنحدر الواقع في طرف القرية. يتوجّه إليها مَنْ لديه بذور سر، يلقيها في صدرها، حيث تختبئ الكلمات براعم منغلقة على ذاتها، لا يدري أحد لونها، حتى صاحبها. يلجأ إليها كل مَنْ له حلم، يُسرُّ إليها به كبر أمنيات، يلقي أمنيته وهو يشتهي الارتواء، عاجزًا عن رؤية أي شيء عدا التماع القاع ببريق أمنيات أخرى ألقاها عابرون من قبل، فحجبت تشققات الجوف المجدب. بعضهم عاملها معاملة قواقع البحر، يهمسون لها بالأمهم، ويشتهون أن تهمس هي لهم بوشوشات الموج، فتهدد أرواحهم المنهكة، قبل أن يلقوها لليمِّ وقد حمّلوها كل أوجاعهم. حملت ثقل أرواح القرية بأسرها صليبيًا فوق ظهرها. تكاثرت عليها الحمول مع كل عابر جديد يدق همّه مسامير في كفيها، ومع كل دمعة تُضاف شوكة في الإكليل على جبينها.

في يوم لا يذكرونه بالتحديد، وجدوا جدولًا صغيرًا يجري قادمًا من ناحية المنحدر، حيث جلسها. ذهبوا إليها، فوجدوها وقد سالت عينها اللتان لا يذكر أحد ماذا كان لونها. لم تكن الدموع تسيل من العينين، بل سالت العينان نهرًا يجري بانديفاع وعنقوان. رفعت رأسها لسمااء زرقاء، وقد انفتح الفم عن آخره، وتصاعدت منه بتلات جافة رقيقة حالت ألوانها. تطايرت كأجنحة فراشات هشة، واستقرت على رؤوسهم، وعلى الأرض من حولهم. تصارعت نغمات قلبها الحبيسة داخل صدرها وهي تحاول ترتيب لحنها. فردت ذراعيها عن آخرهما تحتضن العالم بأسره وهي تدور حول نفسها

بسرعة تتزايد، وفوقها في السماء يحوم سرب حمام. خلق دورانها المشترك دوامة تزايدت قوتها وسرعتها. انفتح قفص صدرها، وطار من عش القلب سرب عصفير دوري رفرفت حول رأسها. ارتفعت الطيور، ترتقي السلم الموسيقي الذي التفت حلزونياً حتى اختفى في الأفق، وكلُّ منها يحمل بداخله نغمتها وحكايتها. استحال جذعها جذعاً خشبياً، وشيئاً فشيئاً، استطالت أصابع قدميها الحافيتين وسط التراب. تفرّعت أصابع القدمين، وتوغّلت مخترقة التربة، حتى صارت جذوراً. وجهها المرفوع تجاه الزرقة حجبته خصلات شعرها المتطايرة التي اخضوضرت تدريجياً. كانت هذه آخر صورة لها انطبعت في أعينهم واحتضنها إطار الذاكرة.

يُحجّون فرادى للشاطيء الجديد، يرتكنون إلى جذع شجرة الصفصاف عند حافة المنحدر، ويفرغون صدورهم. يربط كل منهم شريطاً ملوّناً بلون حاجته أو حلمه في خصلاتها الخضراء. صار لها شرائط كثيرة، ثبّتها زوّارها في خصلاتها التي تتدلّى وتتمايل مع كل نسمة ريح وكل زفرة همّ أو عشق. مع كل شريط حكاية، وكل حكاية أمنية وحلم. أتاها يوماً وفي يده شريط قزمزيّ بلون الدم. عقد الشريط حول خصلة طويلة من خصلاتها تدلّت تُداعب سطح الماء، ثم أسند جبهته على جذعها وأغمض عينيه. حدّثها القلب المضنى: «كلمة الحر وعد، وقد أوفيتُ وسدّدتُ حتى صرتُ لعينيها عبداً. ونظرة الحسناء وعد، لكن عينيها كانتا بعمق محيط، وبلون الغرق». مُغمض العينين ما زال، شعر بطرف فرع من فروعها يمتد بداخل القلب، يمسّه بأنامله برقّة، ويُمسّده بحنان. أودعت الأنامل في الفؤاد بذرة، أينعت زهرة حمراء، لها قلب ما بين التفتح والانغلاق، كشفاه تهمس بسرّاً يكاد يطرق السمع، لكن لا يبين. احتضن قلب الوردة وريقات رقيقة لها الحمرة نفسها، وقد أحاطت به،

لا مثل سور متصل، ولكن كمتاهات صغيرة، يلزمها مَنْ يعرف كيف يناورها حتى يصل عَبرها إلى القلب. شم أنفه عبير الورد، ففتح عينيه، وقام وقد تخفّف من حمول أثقلته. وقبل الرحيل، لاحظ تحوُّل شريطه من القِرْمِزِيِّ الداكن إلى حُمرة زاهية مبهجة.

في اليوم التالي، زارها الصغير وقد تأبّط وحدته، يسيران معًا رفيفي درب متلازمين. فتح كَفّه عن شريط بزرقه مَلَّاح ضل طريقه عبر البحار السبعة. ربط الشريط في طرف فرع رقيق، ثم جلس وقد أَوَّلاها ظهره، مستندًا إلى الجذع، مواجهًا الماء الجاري أسفل المنحدر. سرح في الأفق وهو يحكي بتنهيده: «يقولون إنك أنيسة من لا أنيس له، وجليسة من ليس له جليس سوى الوحشة. لا أب لي ولا أم، فهل تتخذيْني ابناً لك؟» أحس الصغير بأفزع رقيقة تحيطه من الخلف محتضنة إياه. أغمض عينيه، وسبحت نظرتة إلى الداخل وهو يشعر بقلبه يفيض بالزرقة اللامتناهية. امتلأ قلبه حد الأفق ببراح البحر والسماء وصفائهما. شعر بروحه تحلّق بخفّة، واللون الأزرق يلطّف ويسكّن ويحتضن. نهض، واستدار ليحتضن بدوره الجذع الخشبي، وفي قيامه لمح شريطه يرفرف مع النسيم كجناحي عصفور، وقد فاضت زرقه قلبه لتحتضن زرقه الشريط ويصير الكل امتدادًا للأفق.

يومَ زارتها صاحبة الشريط الأبيض، حرص باقي أهل القرية على الابتعاد. كان وجودها كفيلاً بإبعاد الناس من حولها أمتارًا عدة. يهابون تقلُّباتها، ويعجزون عن فهمها. مشاعرها فوضوية، ومزاجها متقلب، مثل إشارة مرور معطوبة تُبدّل ألوانها من دون نظام. كان مَنْ حوَّلها كسيارات حائرة، لا تدري أتتقدم أم تتنظر. ومَنْ يكسر الإشارة بثبات، يدهسه مرور مشاعرها بلا

هوادة. أحاسيسها بداخلها تتكسّر عاتية كأمواج هادرة، بينما الملامح جامدة، لا تشي بالطوفان المحتبس داخل القلب. عقدت شريطها بلون الثلج على الفرع وهي تزفر بحرقة. كلمة واحدة أفلتت بحرارة من أعماق روحها: «تعبت». قالتها وهي تقف، لا تدري أتجلس قليلاً أم تنصرف. سمعتُ حفيف الأوراق يغنيّ لضى الروح تهويده. شريطها الأبيض تمايل في رقصة صغيرة مع الأفرع المتراقصة، قبل أن يتوهج بياضه، ويتفجّر قوس قزح يحتضنها ببهجة الألوان الزاهية. تمايلت هي الأخرى متراقصة، تنفض عنها ملحًا كثيرًا، بينما دموع عذبة تسيل من حدقتي عينيها.

في صباح يوم لا يتذكرونه تحديداً، استيقظوا على سماء القرية تحجب زرقعتها أسرابٌ عصفير ملونة. كانت كثافة السرب تزداد كلما اقتربوا من المنحدر. وجدوا الماء أيضًا يغص بأسماء ملونة، تتقاذف فتبلل قطرات الماء كل مَنْ وقف قرب الشاطيء. لدهشة الجميع، لم يجدوا شجرة الصفصاف في مكانها. فقط، كانت ألوان كل الأشربة التي ربطوها من قبل في خصلاتها تتراقص أمام أعينهم في الماء، وتتطاير فوقهم في الجو. انسابت أحلام القرية وأمانيتها بأكملها مع الماء الجاري والنسيم العابر. بعدها صار كل مَنْ يمر هناك من القرى المحيطة يبطن من خطاه، ويشير لمن لا يعرف الحكاية قائلاً: «تمنّ أمنية، فمن هنا تمر الأحلام».

زهور الأرصفة وأجنحة السلاحف

«كان ياما كان، كان زمان لكل جناح، والأزرق كان مَشاع. كانت الأغاني في كل صدر، ومع كل ضربة جناح تشق قلب السما، كانت الأنغام ترقص في الفضا الواسع. لما اتنست موسيقى الكون، وضاعت كلمات الأغاني، وقع ريش الجناحات، ومشى ابن آدم على وش الأرض، بعد ما تاهت الزرقة في فضا الأحلام». تحكي الجدة، بينما حفيدتها قبالتها تبدو وقد سرحت نظرتها في اللاشيء، رغم تركيزها مع كلمات الحكاية. تغمض عينيها، فتري الزُّرقة مجسّدة أمامها، تكاد تقبض عليها بكفّيتها. تفتحهما مرة أخرى وتبتسم. تنهض وهي تتمطّى، فاردة ذراعيها عن آخرهما، وقد امتد صدرها أمامها ممتلئًا بشهيق طويل. مع الزفير الحار، تتبدل نغمة الجدة؛ من انسياب سلس يدغدغ الأذن، إلى رنين عميق يستمر في الوعي كالصدى. تلقي بكلماتها للكفّين المفردتين، حتى تقبضا على حروفها كتعويذة. «صبية صغيرة جميلة، عينيها مليانة بكرة، وصدرها مفروش براح. وقفت على حرف دُنَيْتْهم الصغيرة تطير، قالوا لها: ما يركب السما غير اللي له جناح». تُكرّر كلماتها تلك بعد كل مرة تحكي فيها حكاية العالم، أيامَ كان للبشر قلوب تسكنها الموسيقى، وأجنحة تحملهم عبر الزرقة الشاسعة. تبدو الكلمات وكأنها قصة مكّلة للحكاية الأولى، وإن كانت مبتورة النهاية. تتلوها الجدة كتعويذة سحرية ينقصها تلويح الجنّيّة بعصاها حتى يسري مفعول السحر ويكتمل. «ربنا يزيدك خفة روح، ويقرب لك السما يا فاطمة». تقولها الجدة، وهي تمسح باطن الكفّين الممدودتين تجاهها، قبل أن تُطبّق عليهما بيديها، وكأنها تودعهما سرًّا.

تنكفى فاطمة على أوراقها، تودعها كلمات جدتها بجوار كلماتها وألوانها الخاصة. كانت ترى الروح الكامنة في الأوراق وراء المظهر الأملس الباهت. تُجِلُّ فيها هامات الأشجار التي كانت يومًا، والجذور رغم اجتثاثها. تحفظ بين ثنيات الأوراق الريش الملون والزهور المجففة. تجمع تفاصيلها من الطرقات والصور، تدرس تفاصيلها المنمنمة، قبل أن ترسم من وحي خيالها ريشة جديدة تجمع تفاصيل الكثير من الريش وألوانه، ولا تشبه أيًا منه. تمزج ألوانها، وترسم بتصميم وعزم. تؤمن أن لكل جناح طريقه، وأنها ترسم ريش جناحها لتخلق لنفسها طريقًا متفردًا لتسلكه. تكتسي وجوه الصفحات الباهتة بإشراق الأصفر ووهج الأحمر وطزاجة الأخضر ونداوتة، لكن دومًا ما كان صفاء الأزرق وسكينته هما السائدان. بين طيّات صفحات الريش المرسوم، كانت تدس سيقان الأعشاب العطرية، والحشائش المجففة والزهور والشرائط الملونة أيضًا. تحفظ غصن الزيتون بأوراقه التي شكَّلتها لتظهر مثنية بالتبادل، ورقة داكنة الخضرة، وأخرى مائلة إلى الفضيّ. في قلب الورق بعض من ياسمين وأقحوان أيضًا، كانت قد حفظتهم بجوار زهرة الأيريس البيضاء التي نقلتها من لوحة فان جوخ. جذبتُها بوحدتها وسط حقل الأيريس البنفسجيّ. تحتفظ بطوابع البريد التي جمعتها. لطالما أحبت الرسائل، بدعوى أنها أجنحة قادمة من عوالم أخرى، وجسور تنقلها لآفاق بعيدة. تجمع الطوابع، وتحفظها بين الكلمات مع الزهور والريش، وتحفظ الجميع في قلب صندوق مزخرف بدرجات الزرقة. تؤمن أن للسعادة لونًا فيروزياً، يتفرق كموج مشاكس؛ ولراحة البال زرقة داكنة، كصفحة بحر ساكنة؛ بينما الحرية لها لون سماويّ، يتدرّج حتى يقارب بياض نجوم بعيدة.

أطلقت صديقتها على صندوقها ذاك لقب «صندوق باندورا»، وهي تراها تعيش في عالم موازٍ، تجمع بداخله قصاصاتها وزهورها وألوانها تعويذة أمل، بينما صندوقها دَرَقَة سلحفاة، تحتمي بها من العالم الخارجي. تسير في الحياة بتؤدة، وتخرج رأسها، من حين إلى آخر، لتتأمل زهرة تشمها، أو ترفع بصرها إلى السماء تفسر أشكال السحب العابرة، قبل أن تحتمي بدَرَقَتها مرة أخرى. في انسحابها ذاك وبُعدها عن العالم حولها، تلوذ بالزُرقة الكامنة داخلها نسيماً بارداً ينعش حواسِّها. لكن الزرقة الحبيسة لا تطيق الكمون ساكنة بين حنايا الضلوع طويلاً، فلا تلبث أن تتمطى وتتمدد، مطالبة بالانطلاق والبراح، فتلفح روحها كرياح صحراوية حارقة، دافعة إياها للخروج إلى العالم مرة أخرى. تندفع في الطرقات، عيناها مثبتة على زهور الأرصفة، تنمو من بين جفاف الشقوق تحت الأقدام العابرة. تستلِفُتها زهور الهندباء، شمس صغيرة مشرقة، لا تلبث أن يشتعل رأسها شيباً، لكن بدلاً من أن تموت تحت وطأة الأقدام، تصعد روحها بخفّة إلى الزرقة البعيدة.

ظلال داكنة تعبر أسفلت الطريق أمامها سريعاً. تختفي لوهلة، ثم تعاود الظهور مرة أخرى. تتابعت حركة الظلال الرشيقة لحظاتٍ، قبل أن ترفع رأسها عاليًا لتتأمل سرب الحمام الذي تراقصت ظلاله أمامها على الأرض وهو يحلق في سمائه. ابتسمت. لشوارع البشر أسماء تقود خطاهم لوجهات محددة سلفاً، بينما للأجنحة المحلّقة بَرّاح الزرقة الشاسعة، يقود لمفاجآت بلا عنوان. عجبث لغفلة مَنْ حَوْلها، وعجزهم عن سماع سيمفونية الأجنحة التي تتردد، تقترب قليلاً ثم تعاود الابتعاد بمقدار اقتراب تلك الظلال المتراقصة وتباغدها. قد تُطرق مِسْمَعِي أحدهم نغمة شاردة كذكرى بعيدة منسيّة، فينفضها من دون اكتراث، ويواصل طريقه من دون التفات إلى السرب

المحلّق في الأعلى. أو قد لا تلفت النغمات انتباههم على الإطلاق، كما لم تلفت انتباههم من قبلُ الشموس الصغيرة التي تسطع من بين فجوات الأرصفة، قبل أن تنطفئ وينسحق وهجها أسفل خطواتهم العابرة.

شعرت فجأة بفجوة شاسعة تزداد اتساعًا في صدرها. رفعت يدها لتضعها على موضع الفجوة، فلم تستقر اليد على الصدر، بل اخترقته لتغوص في فراغ. شهقت، فصقّر الهواء مازًا بالفجوة، قبل أن تحبس أنفاسها الهاربة. رفعت يديها متضرعة، تستنجد بقطعة من الزرقة، تسد بها الفراغ الذي أخذ يزداد اتساعًا وعمقًا. أسرع الخطو عائدة قبل أن تبتلعها الفجوة فتتلاشى تمامًا. دلفت إلى غرفتها، واتجهت مباشرة نحو الصندوق. بعثرت محتوياته على الفراش، واستلقت فوقها مغمضة عينيها، وأنفاسها تتلاحق بسرعة. لحظات مضت، قبل أن تهدأ الأنفاس وتتنظم، ثم يسود الصمت.

عندما دخلت الجدة الغرفة، شمّت رائحة الياسمين القوية. الفراش أمامها مبعثر، وعلى الأرض بجواره صندوق صغير مزخرف بدرجات الزرقة. الصندوق خالٍ. كل ما وجدته هو ريشة زاهية اللون، غريبة النقش، لم تر مثيلاً لها من قبل. ملّست الريشة بأطراف أناملها، فالتصق بها شذى الياسمين. التقطت الصندوق بهدوء، وحفظت الريشة بداخله. سرحت بعينيها في بقعة الزرقة الظاهرة من النافذة المفتوحة. طرّق مِسْمَعِيهَا نغم بعيد، حملت أصداءه نسمة عبرت من خلال النافذة، فابتسمت وهي تُتمتم: «لما فردت جناحاتها، قالوا لها: على فين يا صبية؟ قالت: أسعى في الزرقة الواسعة، وأدوق طعم اللون».

ميلاد

وهج خافت تألَّقَتْ به قشرة البيضة التي أخذت تتحرك، تهتز قليلاً وتتدحرج للأمام. تَزْتَجُّ بتصميم وعزم. شَرَّخَ صغير في قشرتها، نجح بعده في الخروج. انسلَّ بهدوءٍ شعاعٌ من ضوء يزحف على الأرض. تمطَّى الشعاع، فانفرد صبيًّا صغيرًا ماديًّا ذراعيه ليحتضن العالم، وقد امتد صدره أمامه في إقدام مَنْ يخوض مغامرته الأولى. عيناه تلتمعان بلون الدهشة، وقد انفتحتا عن آخرهما. داعبتْ خَدَّه نسمة، وهي تسأله برقَّة عن وجهته. نظر حوله في خيرة، فكل الطرقات تبدو مثيرة، وكل الجهات تناديه. أغمض عينيًّا، وأبقى الثانية نصف مفتوحة، كمن يغش في اللعب، وأشار وهو يضحك بجذل. تتبَّعت النسمة إصبعه الممدودة، ونظر هو أيضًا بعد أن فتح عينيه مرة أخرى. أمسكت النسمة بيده، ورافقت خطواته التي قادتته إلى حيث أشار. كانت هناك بناية عالية، تبدو مهجورة إلا من غلام اعتلى السطح ليقطف السحب الناضجة من قلب حقول الرُّزقة. كان يمد يده يتحسَّس السحب وهي تمر فوق رأسه، ويرفع طرف السحابة ليتفحصها بدقة قبل أن يختار. يلتقط التي تحوز رضاه، ويضمها إلى صدره بذراعه اليسرى، قبل أن يمد اليمنى مرة أخرى لينتقي سحابة جديدة. طارت النسمة بخفَّة، وصعدتْ حيث الغلام أعلى السطح يقبُّب السحابة، فنفختها من بين يديه وهي تضحك. افتعل الغضب، وهو يُقَطِّب جبينه ضاحكًا، ويحاول الإمساك بالنسمة. في مطاردته لها، لمح الصبيِّ الواقف بالأسفل رافعًا رأسه يتأمله. وضع كومة السحب التي يحتضنها برفق. لم تلامس الأرض، وظلت تحلِّق على ارتفاع بضعة سنتيمترات، محمولة على ظهر النسمة التي توقفت عن الهرب. أشار إلى الواقف بالأسفل أن يصعد إليه، فتسلَّق جانب البناية بسهولة شعاع شمس عابر، حتى استقر أعلى السطح.

ابتسم الغلام للصغير، كأنما تعارفت روحاهما من قبل أن تسكنا جسديهما. لاحظ تعلق نظرتيه بكومة السحب الهشة، فسأمسك يده، وقاده نحوها بإشارة تُشجّعه على اختيار إحداها من فوق ظهر النسمة. تردّد الصبي قبل أن يكرّر لعبته. أغمض عينًا، وأبقى الأخرى نصف مفتوحة وهو يختار سحابة من بين السحب. كانت بيضاء شبه شفافة، تتفلّت من بين أصابعه، وتدغدغه بلطف وهي تتضحك. «هي لك، خذها! كنت أعلم أنك قادم، وانتظرْتُك كثيرًا. أجمع السحب منذ لحظة استيقاظ الشمس، حين تتلَوّن وسادتها بالزهريّ والأزرق البارد. قد أستريح قليلًا، ثم أوصل جمع السحب وقد أفاقت تمامًا وغسلت وجهها فبان ناصعًا يسبح في الزرقة. عندما يشارف موعد نوم الشمس مرة أخرى، ويصطبغ فراشها بدرجات الذهب والبرتقال والأحمر الحارة، أنتهي من حصاد اليوم، ثم أنام هنا أنا أيضًا. تتساءل لماذا؟ أمسك سحابتك جيدًا، لا تدعها تُفلت منك! يكون مشاعبًا هذا السحاب أحيانًا! لا بأس. عندما تألفك وتألّفها ستعتادان طباع بعضكما البعض». ساعد الصبيّ على تعديل وضع ذراعيه حول سحابته التي احتضنها، قبل أن يعاود الحديث مرة أخرى: «أحصد الغيم، وأنتظر حتى يأتي المسافرون عبر هذا الطريق، ليتزود كل منهم بحاجته من ألوان السحب. البعض ينتقي الزهرية كي تسليه بحكاياتها؛ بينما يفضّل آخرون تلك المائلة إلى الزرقة، يرتدونّها تعويذة تلطّف عليهم أعماقها الباردة من شعور الحنين والوحدة؛ ومن ينتق لون البرتقال والذهب أعرف أنه مسافر يسعى وراء طموح يناديه. لا ينتقي الغيم الأحمر سوى مَنْ يسافر هربًا من قلبه. مساكين، لا يدري أغلبهم أنهم اختاروا أن يحملوا فوق أكتافهم المادة الخام لجوهر ما يسعون للفرار منه! سحابتك أنت بيضاء ناصعة، لا سوء فيها. كنت أعرف أنك ستأتي، فحرصت على قطفها طازجة

لك. يمكنك أن تحيط بها كتفيك، وأن ترفع طرفها غطاءً لرأسك. وإذا احتجّت، تستطيع أن ترتوي من طرفها قليلاً، فهي لن تمنع. لو شاغبتك وحاوَلت لعب الاستغماية، عليك أن تحرص على استعادتها كاملة، فقد يتفَلّت بعض منها ولا يعود مع ما يعود. لكن هأنذا أطيل في الكلام، وأعطّك عن مسعاك. انظر، من هنا يمكنك رؤية الطرق كلها وتشعباتها. عليك أن تسلك ذلك الطريق هناك، ستصل إلى حقل صاحب الكلام في آخره. هو سيعطيك زادك من الحروف. هيّا كي لا تتأخر أكثر من ذلك، فها قد بدأ لون البرتقال في الظهور، وعليّ قطافه!»!

انسلّ الصبي زاحفًا من جانب البناية مرة أخرى، محتضنًا غيمته. عندما وصل أول الطريق الذي أشار إليه الغلام من أعلى البناية، تأمّل الغيمة الراقدة بين ذراعيه عن قرب. قلبها بين يديه وهو حريص على ألا يؤلمها. حفظ ملامحها جيدًا، ثم ابتسم لها ابتسامة مشرقة، ذكّرتها بالشمس التي كانت تلاعبها الاستغماية. بادلتها الابتسامة، وهدأت قليلاً وقد كَفّت عن محاولات التفلّت بين يديه. عندما اطمأن لاستكانتها، لَفّها حول كتفيه، ورفع طرفها ليغطي بها رأسه. مضى في طريقه حتى حل الظلام، فافترش جانب الطريق، لينال قسطًا من الراحة. نفش السحابة بيديه بعض الشيء، ووضعها تحت رأسه، وأخلد إلى النوم. استيقظ بعد فترة، عندما أحس بدفء الشمس وقد أشرقت، وبشيء يدغدغ أنفه. عطس عطسة طارت معها أطراف الغيمة قبل أن تتجمع مرة أخرى. لَفّها حول كتفيه، واستأنف المسير.

أدرك أنه على مشارف حقل صاحب الكلام عندما بانّت له في الأفق هيئة رؤوس الشجر. عندما اقترب أكثر، تناهت إلى مسمَعَيْه همسات الأشجار، وقد

أدنت رؤوسها من رؤوس أصحابها تتسامر معهم، بينما تحمِل حفيفَ كلماتها الريح. كلما اقترب اتضحت له ملامح الأشجار. كان منها الرشيق في استطالة، ولها نبرة صوت أرسقراطية، تجعلك تلتزم أفضل سلوك تستطيعه في حضرتها. وكان هناك المائل للاستدارة في لطف، وقد حملت طبقة صوتها دفنًا يناديك كالخبز الطازج. كان لغيرها فروع تستطيل في كل اتجاه، تعابت الريح وتعبتها، بينما صوتها مليء بالإثارة والبهجة، تدعوك لتلعب معها.

توقف وسط الحقل يحاول فك شفرة الكلمات التي غزت مسمعيه من كل اتجاه. بينما هو يحاول فهم حديث الأشجار، دنا منه صاحب الكلمات. وضع يده على كتفه، فقفزت الغيمة فجأة. ربت الصبي عليها فاستكانت. ابتسم صاحب الكلمات للصبي وهو يخاطبه: «كنت أنتظر حضورك. أرسل إليّ الغلام صاحب السحاب خبرًا مع سحابة بأنك قادم. تعالَ معي لتشاهد الأشجار قبل أن تتخيّر كلماتك منها. لديّ شجرة تتقن لغاتٍ عدة، من يقطف منها ويأكل من كلماتها يبذلُ ذكيًا جدًّا للمستمعين، لكن عليه بذل جهد مضاعف حتى لا تتداخل الكلمات وهو يتحدث فتختلط اللغات. ساعتها لن يفهم حديثه أحد، ويصير أضحوكة. قد يدهشك عدد الذين يختارون الأكل من ثمرها رغم مشكلاتها. أعتقد أن رغبتهم في الظهور بمظهر الأذكاء تفوق اهتمامهم بالتواصل والفهم، لكن لا بأس، فنحن بحاجة للضحك من حين إلى آخر! لديّ شجرة أخرى لا تثمر سوى كلمة واحدة فقط. تختلف الكلمة باختلاف من يقطفها. تعرف الشجرة ما بقلب كل من يقترب منها، فتثمر الكلمة المناسبة لما يحمل هو بداخله. يفضّل البعض هذه الشجرة لسهولة حديثها. كلمة واحدة، لا يرددون غيرها، ولا يغيرونها أبدًا، مهما حاولت إقناعهم بأن هناك كلمات ولغات أخرى كثيرة. تتصلب ألسنتهم وأدمغتهم عندها، وكفى! لديّ شجر

مشاغب بعض الشيء، لكنه مُسَلِّ. يطرح أحاجي من كلمات غير مكتملة، تركبها وتصل بعضها ببعض كيفما شئت، لتلائم أي موقف تواجهه. معظم من يفضلون ثمارها هم من المغرمين بلعب السياسة أو الفلسفة».

وصل صاحب الكلام، وهو يسير برفقة الصبي، إلى بقعة خالية وسط الحقل. أشار إلى البقعة، قائلاً للصبي: «هنا، كما ترى، لا توجد أشجار على الإطلاق. فالبعض لا يحبذون فكرة قطاف ثمر مكتمل النمو من شجر لم يزرعوه بأنفسهم. من يرغب يستطع اختيار بذوره الخاصة وزراعتها بنفسه هنا. صحيح أن الأمر يستغرق جهداً أكبر ووقتاً أطول بكثير، لكنهم في النهاية يحصدون كلمات خاصة بهم وحدهم، لا يشاركون فيها أحد من العالمين. معظم من يختارون الزراعة هنا هم من الشعراء والكُتّاب. لو أردت هذا الخيار، يمكنك الحصول على البذور من هنا». فك صاحب الكلام من حزامه كيساً صغيراً من المخمل الملون بألوان الطيف. فتح طرفه بحرص، فالتمع من أعماقه وهج ساطع، ثم أغلق الكيس مرة أخرى بعد أن ألقى الصبي نظرة داخله. تابع الحديث قائلاً: «لكن هناك شيئاً يستلزم التحذير. خيار الزراعة هو بمنزلة لعب القمار، فما من أحد يعرف ما سينال من بذور، ولا ما ستطرحه من كلمات حين تثمر أشجارها». هز الصبي رأسه علامة الفهم والموافقة. مد يده تجاه الكيس، فأدناه منه الرجل. أغمض الصبي عيناً، وأبقى الأخرى نصف مفتوحة كعادته، وقبض قبضة من قلب الكيس المخملي. نثر ما بقبضته من بذور لامعة كتراب الجيِّيات السحريِّ في البقعة الخالية. أمسك طرف الغيمة يعتصرها، حتى ارتوت بقعة الأرض، ثم توسّد غيمته ونام من التعب.

مرّت الأيام في حقل صاحب الكلام، والصبي بين الأشجار، يسمع حديثها حينًا، ويولي بذوره التي زرعها عنايته أحيانًا أخرى. يجلس جوار البقعة الخالية، وهو يُرَبِّت على سطح التربة بحنان. غيمته الصغيرة تظللها، تحميها من وهج الشمس عند الحاجة، وتفتح لها مسافات تتخللها الأشعة الذهبية عند الحاجة. ومن وقت إلى آخر، يعتصر الصبي أطراف الغيمة برفق، فترتوي الأرض وتنتعش برائحة التراب المبلل بالمطر. بالإضافة لحديث الأشجار، كان يمر بعض المسافرين بين حين وآخر، يُسَلُّونه ويؤنسون وحدته. كان جالسًا ذات يوم يهدد البذور في جوف التربة لتنام وتستجمع قواها للنمو، والسحابة مستلقية على كتفه. مر فوقهم ظل كثيف، جعله يرفع رأسه لأعلى، ليرى رجلًا يمسك مجموعة ضخمة من البالونات الملونة في يده، وقد ارتفعت وحملته معها إلى السماء. هبط الرجل وبالوناته شيئًا فشيئًا، حتى حطَّ بجواره. كان الرجل مستديرًا مثل بالوناته الملونة، وله ضحكة عالية تنضح منها البهجة. جلس بجوار الصبي، بينما طارت السحابة لتلاعب البالونات بجانبه. وكأنما يستأنف حديثًا سابقًا قطعه من قبل وعاد ليكمّله، قال للصبي: «هيّا اختر بالونة!» مد يده في جيبه، وأخرج حفنة من البالونات الملونة الصغيرة التي نامت في كَفِّه في هدوء. أدناها من الصبي وهو يواصل حديثه: «عليك أن تختار واحدة منها، تنفخ بداخلها أمنياتك، ثم تطلقها. قد تعود إليك لاحقًا في الوقت المناسب، أو قد تختار الهرب. لا يمكن التنبؤ أبدًا بسلوك هذه البالونات!»! أغمض الصبي عينًا، وأبقى الأخرى نصف مفتوحة وهو يمد يده ليلتقط بالونة من كف الرجل. فتح عينيه ليرى بالونة بيضاء صغيرة بين أصابعه. «أهنئك على اختيارك! الأبيض يجمع في قلبه كل الألوان، وباستطاعته حمل كل الأمنيات. قليلون هم من يعرفون قيمة

الأبيض. معظم الناس يميلون لاختيار لون من الألوان الزاهية. هيّا، ضع أمنيّتك بداخلها، ودعني أربطها لك بشريط مناسب». قرّب الصبي فوهة البالونة من فمه، ولم تلبث أن انتفخت وكبرت واستدار شكلها. كان الرجل يبحث في جيبه عن شيء ما، ثم استخرج شرائط ملونة، انتقى من بينها شريطاً حريريّاً ناعماً أبيض اللون. تناول الشريط، وربط فوهة البالونة بإحكام، ثم ناولها للصبي مرة أخرى. «هيّا، أطلقها، ودعها تعانق حرابتها!» رفع الصبي ذراعه لأعلى، وانفتحت أصابع كفه القابضة على الشريط. طارت البالونة بعيداً، وهو يراقبها، حتى صارت نقطة صغيرة اختفت في الأفق. نادى بعدها الرجل بالونات بصفير منعم أطلقه من بين شفّتيه، طارت على إثره البالونات، وتجمّعت شرائطها الطويلة بين أصابعه. رققت السحابة بين أطراف الشرائط قليلاً، قبل أن تعود لتستقر على كتف الصبي مرة أخرى وهو يودّع صاحب البالونات بإشارة من يده.

كبرت البذور بعض الشيء، وبانت فوق الأرض قممها خضراء ندية تحت ظل السحابة التي تحرسها. بينما الغلام يجلس بجوارها كعادته، يملّس عليها بأطراف أنامله، مرت به سيدة عجوز، وقد تأبّطت ذراع شيخ كبير. كانا يسيران في ائتّاد، حتى اقتربا من الصبي، فأخرجت العجوز من حقيبة قماشية ضخمة تحملها منديلاً كبيراً، فرشته، وجلست على جانب منه، واستقر الشيخ بجوارها. «أتمنى ألا تمنع من جلوسنا هنا قليلاً، لنستريح ونلتقط أنفاسنا، يا بنيّ»، خاطبته العجوز. «يمكننا أن نتسلّى لتمضية الوقت. أرى أنك تمتلك الكثير من تلك السلعة. أراك مندهشاً. نعم، الوقت سلعة! ألم تكن تعلم ذلك؟ لديك منها مخزون ثمين، يجب أن تحرص عليه، فبضاعتك مستقبلية. معظم ما أملكه أنا وزوجي هو بضاعة ماضية قديمة، وإن كان لها

ثمن لدى من يقدرها». كان الشيخ ثقيل السمع، بالكاد يميز ما تقوله العجوز. ما أن سمعها تذكره في حديثها حتى افترض أنها تطلب منه شيئًا. همهم بكلمات غير واضحة، وهو يعبث في جيب داخلي لمعطفه، حتى أخرج مفتاحًا عتيقًا كبير الحجم، وساعة أثرية من النوع الذي يعمل بزمبرك، وناولهما لها قبل أن يعود لصمته. أمسكت العجوز بالمفتاح والساعة، ووضعتهما بجوارها، ثم فتّشت في حقيبتها، واستخرجت منها صندوقًا خشبيًا عتيقًا، مزينًا بزخارف محفورة تحكي قصة ما. وضعت المفتاح في مكانه بالصندوق، لكنها لم تدره ليفتح القفل. تناولت الساعة في راحة يدها، وتأملتها لوهلة، قبل أن تواصل حديثها للغلام: «لديّ هنا بعض البضاعة القديمة. سأهديك منها شيئًا مقابل كرمك واستضافتك لنا. انظر!» ملأت زمبرك الساعة، فدبت فيها الحياة. قالت: «تك، تك، تك»، وتراقصت عقاربها قليلاً قبل أن تصمت وتهدأ مرة أخرى. قرّبتها العجوز من عينيها لترى الوقت بوضوح، ثم ابتسمت وعيناها تكتسيان بنظرة بعيدة. «نعم، نعم! أتذكر هذا. كانت أوقاتًا طيبة للغاية». أدارت المفتاح في القفل، فأصدر صريرًا، رفعت على إثره غطاء الصندوق. تأمل الصبي ما بالداخل، فلم ير شيئًا سوى بطانة مخملية قديمة، لها لون أحمر حائل، تكسو باطن الصندوق، وقد تآكل بعض جوانبها بفعل الزمن. اكتست ملامحه بخيبة الأمل الذي استحال بهجةً فور أن لمح الزخارف المنقوشة على جدران الصندوق من الخارج. كانت تتحرك وكأن الحياة دبّت فيها. ميّز من بين الرسوم شائئين، بدا أنهما هما الشيخ والعجوز في زمن مضى. كأنه يشاهد أمامه حكاية مجسّمة، راقب الشاب يهدي الشابة زهرة منمنمة حُفرت تفاصيلها بدقة. وعلى الجانب الآخر من الصندوق، شاهد ولدًا وبنثًا يركضان في حديقة كوخ صغير، بينما تناديهما

الشابة للعشاء. تابع حركات الرسوم عبر جوانب الصندوق، حتى استقرت نظرتة على ركن خالٍ من الزخارف. أغلقت العجوز الصندوق وهي تبتسم. «هذا يكفي. لقد آن الأوان لنستأنف المسير. هيا يا عزيزي». مدّت يدها للشيخ الذي أمسك كفّها لينهضا معًا. أعادت إليه المفتاح والساعة، لكن، قبل أن تعيد الصندوق داخل حقيبتها، لمح الغلام الركن الذي كان خاليًا من الزخارف منذ لحظات، وقد حُفرت عليه قعم نباتات صغيرة تظللها غيمة، وبجوارها غلام يشبهه. انحنت العجوز تلتقط منديلها من على الأرض، ونفضته. أعادته هو الآخر للحقيبة، ثم ناولت الغلام صندوقًا خشبيًا صغيرًا يشبه صندوقها، لكنه كان أحدث، وخاليًا من النقوش. «ستحتاجه لتخزّن فيه بضاعتك أنت أيضًا. احرص عليه». كان الغلام يتفحص جوانب الصندوق بفضول، ويحاول إدارة المفتاح الموضوع داخل القفل. عندما رفع رأسه كان قد اختفيا بسرعة مذهشة.

الغلام يجالس الشجيرات التي شَبَّت حتى ارتفعت قاماتها، تداعبه السحابة، ويجاوره صندوقه الذي انحفرت على جانب منه صورة الشجر وصورته بجانبه. كان مطرقًا يتأمل الرسم، حينما تقافزت فوقه فقاعات صغيرة شفافة، تحمل كل واحدة بداخلها قوس قزح. تتطاير الفقاعة، وتقفز بخفة وهي تشاكسه، ثم تنفجر، مطلقة ما بداخلها من ألوان، وهي تُصدر صوت نغمة موسيقية. كل فقاعة تنفجر تلوّن ما حوّلها، وتصدر نغمتها الخاصة. قام يركض خلف الفقاعات وهو يضحك، يحاول تأليف لحنه الخاص من النغمات المفردة وهي تنفجر عند ملامسته لها. السحابة تطير هي الأخرى، تتخللها الفقاعات، تدخل من جهة لتخرج من الجهة المقابلة. انتبه على صوت مختلف وسط نغمات الفقاعات، كان أشبه برنين أجراس فضية صغيرة. التفت ليرى

خلفه فتاة تحوم على ارتفاع قليل من الأرض، وكأنها تطير مثل فقاعاتها التي تنفخها من فمها وهي تضحك ضحكتها الفضية الرائقة. التقت أعينهما وملؤها البهجة. نفخت المزيد من الفقاعات، وكأنها تنفخ قبلات صغيرة في الهواء، وهي تحوم فوق العشب، وهو يركض حولها. بعد أن اصطبغ المكان بقوس القزح المتفجر، جلسا بجوار أشجاره الصغيرة. «شكرًا لأنك شاركتني اللعب». قالتها وهي تبتسم. «لا أختار طريقي في العادة، لكن النسيم يحملني فأذهب معه. أنا ممتنة لأنه حملني إلى هنا اليوم». بدأت رياح خفيفة تهب، فأحاطت السحابة بكتفي الغلام، بينما أخذت الفتاة تتأرجح قليلاً في جلستها. عرفت أن أوان الرحيل جاء، فنفخت للغلام من بين شفيتها فقاعة كبيرة، وقالت قبل أن تحملها الريح بعيداً: «ليكن خفة الروح واللون والنغم رفاقك دوماً!» رنث أجراسها الفضية مرة أخيرة وهي تطلق خلفها ذيلًا طويلاً من الفقاعات الصغيرة. لاحظ أن الفقاعة الكبيرة التصقت على جانب صندوقه، بالقرب من ثقب المفتاح، قبل أن تنفجر. رفع الغطاء قليلاً وهو يرمق الصندوق من الداخل، فتصاعدت من جوفه النغمات، والتمع في قلبه قوس قزح صغير.

انتبه الغلام على يد صاحب الكلام تهزه برفق. «هيا، استيقظ يا بني! لقد آن الأوان». نظر إلى أشجاره، فوجد أفرعها التي نمت وتشعبت قد حملت ثمرها الذي التمع بالندى وحن قطافه. «هل تدرك ما تمتلك، وكم أنت محظوظ الآن؟ ثمر شجرك من حروف الهجاء المفردة. يمكنك ترتيبها، لتشكّل بها ما شئت من كلمات معروفة أو غير معروفة تصنعها أنت. لديك مطلق الحرية. كثيرون هم من لقوا حتفهم من أجل حرية الكلمات هذه. هيا، تذوّق ثمار جهدك!» مد الغلام يده بحرص، وقطف حرفاً، ثم حرفاً، وراه حرف آخر. جمع الأحرف في يده بحرص، ووضع واحداً منها على طرف لسانه. نظرة

مشجعة من صاحب الكلام حثَّته على أن يمضغ حصاده ويبتلعه. طعم الحرف على طرف لسانه كان لاذعًا أول الأمر، مثل ليمون حامض، لكن كلما مضغه سالت حلاوته الدفينة في فمه. «هَيَّا، احصدها كلها، واحرص على ألا تنسى حرفًا منها حتى لا يذبل. كلما كانت الحروف طازجة وأنت تتناولها كانت كلماتك صبوحةً مضيئة». قطف الغلام الحروف كلها من أفرع الشجر بحرص. يقطف الحرف ثم يضعه في فمه ويستسيغه. بعد أن انتهى من وجبته، شعر بكلمات تتكون على طرف لسانه. قبل أن يطلقها من بين شفتيه، وضع صاحب الكلام كفه على فمه. «أعرف أنك الآن تتوق للحديث، لكن عليك أن تصبر يا غلام! الأفضل أن تؤجل كلماتك الأولى لما بعد أن تختار الباب الذي تريد أن تفتحه، وتعرف طريقك الذي سوف تسلكه». أوما برأسه علامة الفهم، فأنزل صاحب الكلام كفه عن فمه. التمعت عينا الغلام بمعاني كثيرة، فهمها صاحب الكلام، وقابلها بابتسامة وهو يشير إلى الطريق بيده. «هَيَّا، أمامك مشوار طويل. حقل صاحب الأبواب من هذا الاتجاه. حظًا موفقًا يا بني». انحنى الغلام يحمل صندوقه، ورفع السحابة فوق رأسه وهو يلقي نظرة أخيرة على أشجاره التي أخذت تنكمش وتعود لسباتها في باطن الأرض بعد أن تخففت من حملها من الحروف.

سلك الغلام الطريق الترابي الطويل الذي دلَّه عليه صاحب الكلام، وهو يسلي نفسه بأنغام صندوقه وألوانه حينًا، ومراقبة النقوش المتحركة على جوانب الصندوق حينًا آخر. عندما كانت تشتد به الوحدة، كان يتمدد ويغطي وجهه بسحابته، ويغمض عينيه من خلفها وهو يلوك مذاق الحروف على طرف لسانه، ويحلم بالكلمات التي سيشكلها منها ويطلقها، ما أن يختار بابها ويفتحه ليرى الطريق الذي يختبئ خلفه. واصل سيره مسافة، نامت الشمس خلالها

واستيقظت مرات عدة، حتى وجد نفسه على مشارف حقل صاحب الأبواب. أدرك أنه وصل، وأن هذا هو الحقل المعني، لا سواه من الحقول التي مر عليها خلال مسيره، عندما رأى إطارًا خشبيًا مرتفعًا يحتضن بابًا من الخشب الخام، لم يُنعم، ولم يُدهن، بل احتفظ بخشونة الشجرة الأم التي جاء منها. كان الباب في العراء، لا جدار حوله، ولا سور. مجرد باب على حافة الحقل. وعلى الرغم من ذلك، عرف الغلام أن هذا هو الطريق الوحيد للدخول. طرق الباب طريقة مفردة، تلتها طرقتان متتابعتان، ثم فتحه ودخل. على امتداد النظر، تناثرت الإطارات الخشبية القائمة منغرسه جذورها في الحقل، وقد تعددت الألوان والأشكال. منها ما احتضن بين قوائمه أبوابًا، ومنها ما كان خاليًا يطل على الفراغ. بعض الأبواب انفتح قليلًا، وكأنه يرى من القادم؛ بينما صفرت الريح وهي تمر من بعض الإطارات المفتوحة على الفراغ، كأنها تناديه للعبور منها. حار الغلام بين الأبواب، يحاول أن يوازن بين الكياسة الواجبة التي تحتم عليه الهدوء حتى لا يزعج الأبواب النائمة، وبين التزام أدب التحية تجاه الأبواب التي تراقبه. سار بحذر في الممرات المنفتحة بين الأبواب، وهو يومئ برأسه لتلك المواردية في فضول، ويغض البصر عن تلك الغافية لكبر السن أو التعب.

انتبه الغلام على أحد الأبواب يفتح، ويطل من خلفه رجل تغصن وجهه، واكتسبت بشرته الشمرة الداكنة من لفح الشمس، حتى صار شبيها بلحاء الشجر. أدرك أنه صاحب الأبواب. ابتسم الرجل، وكأنما كان ينتظره. أشار بذراعه إلى الحقل الممتد في حركة واسعة، وهو يقول: «أرى أنك بدأت تتعرّف إلى الأصدقاء هنا. منهم من هو فضوليّ بعض الشيء، لكن كلهم ودودون للغاية، ويتقنون واجبات الضيافة عندما يتعرفون إلى الزائر. فقط،

حاول أن تتفادى ازعاج مَنْ لا ترى في ثقبه مفتاحًا، فقد يكون ما زال يتعافى من حزن الفقدان، ولن يتقبل زائرًا جديدًا حتى يلاقي المفتاح الذي يُعوّضه. كفانا حديثًا الآن. لن أضيع وقتك في عرض الأبواب عليك، فهي كما ترى حولك في كل مكان. أعلم أنك جئت لا تريد أيًا منها، ولا تسعى لاستكشاف أيّ من الطرق القابعة خلفها. تعال أقدك إلى ما تريد». اصطحبه إلى بقعة خالية في منتصف الحقل تمامًا. وقف الغلام يتأملها برهة، ثم جلس على ركبتيه مفترشًا السحابة أمامه. وضع فوقها الصندوق وفتحته. حرّك شفّتيه في باطن الصندوق من دون أن يعلو صوته بأي كلمات. تراقصت الألوان بداخله، ورنت أنغام خافتة، قبل أن يرتسم على جانبه باب تلتف حوله أفرع خضراء، وتزهر من قلب خشبه ورود. رفع رأسه ليجد أمامه بابه يعلو من باطن الأرض ويرتفع، بينما جذوره تتلوّى وتمتد حوله عميقة قوية. أغلق الصندوق وهو يحيط كتفيه بالسحابة، ثم نهض. مد يده ليفتح الباب. غمره ضياء مبهر أعمى عيني صاحب الأبواب لحظة، فتحهما بعدها ليرى بالونة بيضاء لها شريط طويل أبيض تطير لتلحق بالفتى الذي عبر، قبل أن ينغلق الباب مرة أخرى.